# الفصل الثالث

# شفيـــق جبري ناثراً

ويتضمن المباحث التالية :

١ - آثـــاره النثرية ·

٢ - فنونه النثريـة :

أ - فن المقالـة ·

ب - فـن السـيرة ·

ج - أدب الرحلات ·

٣ - أسلوبـه ·

## ١ - آثـــاره النثريـــة :

يعد شفيق جبري من مجيدي الكتّاب ، كما عدّ من كبار الشعراء ، فجمع بذلك بين النثر والشعر ، فلقبه بعض الدارسين برجل الصناعتين[١] ، وعدّه آخر أميرا من أمراء النثر[٢].

وماخوّله ذلك المقام الرفيع ، إلا كون أكثر مؤلفاته « جادة ورصينة ، تنطوي على جهد وتقصٍ ، ودراسة وتحليل ، بل إن بعضها يعد من حيث وقت ظهوره على الملأ ، وأهمية تأثيره فيهم ، بمثابة فتح جديد في دنيا الدراسات الأدبية في سورية »[٣].

وسوف أفصّل الحديث في آثاره النثرية ، المطبوع منها والمخطوط ، وأشير إلى مقالاته وخطبه ورسائله ، منسّقا ماطبع من كتبه بحسب تاريخ صدورها .

### ١ - المتنبـــي :

هو في الأصل محاضرات ، ألقاها في كلية الآداب بجامعة دمشق ، ثم نشرت مسلسلة في مجلة المجمع العلمي [ بدءاً من المجلد العاشر ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٧١ ، إلى الجزء الثاني عشر من المجلد نفسه ، الصفحة ٧٣٢ ومابعدها ]، ثم طبعت بعد ذلك في كتاب مستقل بعنوان [ المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس ] عام ١٩٣٠م بدمشق .

ولقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة ، وتقديرا من الأدباء ، وعُدّ ظاهرة جديدة في الدراسات الأدبية[٤] ، لكونه جرى فيه على التحليل والمناقشة لكل ما أثار جدلا في حياة المتنبي ، كعروبيته ، وشعوبيته ، وعبقريته .

### ٢ - الجاحظ معلم العقل والأدب :

كان في الأصل محاضرات ألقاها في كلية الآداب بجامعة دمشق ، بدءاً من تشرين الثاني ١٩٣٠م ، وفرغ منها في أيار ١٩٣٢م[٥] ، ثم نشرت مسلسلة في مجلة

---

(١) انظر : صنّاع الأدب ١٣٥ .
(٢) انظر : عبقريات شامية ٢٤ .
(٣) صناع الأدب ١٥١ .
(٤) انظر : الأدب والقومية في سورية ٢٣٩ .
(٥) انظر : معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين ٩٣ ، عبدالقادر عياش ، دار الفكر ، دمشق ، ط الأولى ١٤٠٥هـ .

المجمع العلمي ، [ بدءاً من الصفحة الثانية والسبعين من الجزء الأول والثاني ، من المجلد الحادي عشر ، وانتهاءً بالصفحة ٣٦٢ ومابعدها ، من الجزء الخامس والسادس ، من المجلد الثاني عشر ] ، ثم طبعت مستقلة عام ١٩٣٢م بدمشق ، ثم طبعت مرة أخرى عام ١٩٤٨م بمصر[١] .

وربما كان تأليف هذا الكتاب محاولة لتفنيد دعاوى بعض المستشرقين ، الذين جرّدوا المسلمين من فضيلة البحث ، واتهموا الإسلام بمعاداة العلم ، « فحفز ذلك جبري على الالتفات إلى البحث والتقصي »[٢] ، ويظهر أنه اطلع على رأي أحد المستشرقين الذي اتهم فيه منهج الجاحظ بالفساد والفوضى ، فكانت فصول كتابه ، بمثابة رد علمي مسهب ، ومؤصل على هذا الحكم[٣] .

ونال كتابه هذا من التقدير ، أكثر مما ناله كتابه الأول عن المتنبي ، وقوبل بالثناء البالغ ، فحكم بعضهم بأنه برز من خلال هذا الكتاب ، باحثا أصيلا ، حين « كشف النقاب لأول مرة في العربية عن الجاحظ العالم »[٤] .

وقالت مجلة المقتطف في عرضها للكتاب : إن جبري وفق في كثير من فصول الكتاب توفيقا عجيبا جديرا بالاغتباط والثناء والإعجاب ، وإنه خلّف في بحوثه أروع الآثار[٥] .

وبالغ آخرون فحكموا بإجماع المستشرقين بعد أعلام النقاد في الوطن العربي ، على أن كتابه ، خير كتاب ألّف عن الجاحظ[٦] .

وفي نظري أن الأولى في عنوان الكتاب ، أن يكون ( الجاحظ من خلال كتاب الحيوان ) ؛ ذلك لأنه يحيل في ثلاثة أرباع الكتاب أو أكثر عليه ، مكثرا من النقول منه ، والاستشهاد بما ورد فيه ، وقد صرّح بذلك - عَرَضاً - حين قال في الحديث

---

(١) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٢) تأثير الغرب في أدب شفيق جبري ، مجلة الثقافة ٢٩ .
(٣) انظر : المرجع السابق ٢٩ .
(٤) انظر : صناع الأدب ١٥١ .
(٥) انظر : مجلة المقتطف ، المجلد ٨١ ، الجزء ٣ ، الصفحة ٣٦٩ .
(٦) راجع الحوار الذي جرى مع سعيد الجزائري في مجلة الثقافة ٧٧ .
وانظر كلاما شبيها بهذا في مقال ( شفيق جبري شاعر الشام ) لخالد قوطرش في المجلة نفسها ص ٨٦ .

عن فنّ الجاحظ : « فكأن كتاب الحيوان ضرب من أحاديث في العلم والفلسفة »[١].

٣ - <u>العناصر النفسية في سياسة العرب</u> :

صدر في القاهرة ، ضمن سلسلة ( اقرأ ) عام ١٩٤٥م ، ثم طبع مرة أخرى في بيروت عام ١٤٠٧هـ .

ويعد هذا الكتاب فريدا في بابه ، حيث يدرس التاريخ من الوجهة النفسية ، فيحلل الأحداث والأقوال والأفعال على ضوء ملاحظ نفسية دقيقة .

ووُصف بأنه « أول كتاب من نوعه في اللغة العربية »[٢]، وأنه « صورة منصفة لتصرفات بعض رجال التاريخ العربي »[٣]، كما قيل عنه « إنه من بين تلك الكتب الموجهة ... التي في ... خير مايغذي الوعي العربي والإسلامي »[٤].

والحق أن هذا الكتاب معدود في الكتب المتميّزة ، وصاحبه - في رأيي - من رواد التحليل النفسي للنصوص التاريخية ، لأنه في هذا الباب باحث طُلَعة ، نو ذهن يلتقط الملحوظات النفسية ، ويجيد التعبير عنها ، وزيادة على مافي هذا الكتاب تجد في أثناء كتبه الأخرى ملاحظ وإشاراتٍ فيها الكثير من عمق النظر في طبائع النفوس[٥].

٤ - <u>بين البحر والصحراء</u> :

صدر في القاهرة ضمن سلسلة ( اقرأ ) عام ١٩٤٦م[٦] ، ثم طبع مرة أخرى في بيروت عام ١٤٠٧هـ .

وتدور فكرة الكتاب حول الموازنة بين أدب العرب ، وأدب الفرنجة ، حيث تضمن ثلاثة عنوانات ، يتفرع عنها مباحث قصيرة .

---

(١) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٥٢ .

(٢) من مقالة عن الكتاب بقلم محمد سعيد العامودي ، مجلة المنهل ، مج ٦ ، العدد ٤ ، ص ١٦٠ ، ربيع الآخر ١٣٦٥هـ .

(٣) من كلمة الرباوي في مجلة الموقف الأدبي ، العدد ١٠٧-١٠٨ ، ص ٢٣٦ .

(٤) من تاريخنا ٩٩ ، محمد العامودي ، دار الأصالة ، الرياض ، ط الثالثة ١٤٠١هـ .

(٥) انظر مثلا : أرض السحر ١٠ و ١٩٣ .

(٦) انظر : معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين ٩٣ .

فالعنوان الأول : حس الطبيعة ، والثاني : الأدب النفسي ، والثالث : الأدب الوطني .

٥ - دراسة الأغاني :

صدرت طبعته الأولى في بيروت ١٩٤٨م ، وكان عنوانه ( دراسات في كتاب الأغاني ) ، ثم عدّل العنوان إلى ( دراسة الأغاني ) في طبعته الثانية ، التي صدرت بدمشق عام ١٣٧٠هـ [١].

حاول المؤلف في كتابه هذا « أن ينسق صورة الحياة الاجتماعية ، على نحو ماكانت عليه في العصور التي وصفها الأصفهاني » [٢]، ولم يكن همه في هذه الدراسة تلخيص أخبار الأغاني ، ولكنه صرف همه إلى استخراج مادة يُستعان بها على فهم الحياة في الماضي [٣].

وقد عمد إلى تقسيم الكتاب إلى مباحث لا إلى فصول ، - مثلما فعل من قبلُ في كتابيْه عن المتنبي والجاحظ - فجاءت دراسته على هذا النحو : مقدمة الأغاني - موضوعات الأغاني - براءة ذمة أبي الفرج - العامة - حياة الكتاتيب... وهكذا[٤].

وحظي كتابه هذا ، بمثل ماحظيت به بعض كتبه الأخرى ، فوصفه أحد الدارسين بأنه « عمل سيظل نموذجا طيبا للرؤى الجديدة التي نطمع أن ننظر بها إلى تراثنا ... »[٥] وهو « يشبه أن يكون إعادة بناء للوحة فسيفسائية محطمة » [٦].

ووصفه آخر بأنه دراسة جيدة، « قلما فطن إليها على هذا الغرار الكثيرون »[٧].

ولكني أحكم على هذا الكتاب ، بأنه دراسة ناقصة ؛ لكونه بناها على الإكثار من النقول ، وإصدار الأحكام التي لاتصمد تجاه التمحيص ، وما اعتراها هذا النقص إلا من جهة الإعجاب الكبير منه بكتاب الأغاني ، حيث وصفه بأنه « الكتاب

---

(١) انظر : المرجع السابق ٩٣ .

(٢) أنا والنثر ١٠٨ بتصرف ، وأبو الفرج الأصفهاني (٢٨٤ - ٣٥٦هـ ) من مشاهير الأدباء ، أموي شيعي ، من مصنفاته الأغاني والإماء الشواعر وأيام العرب ، مولده ووفاته ببغداد (الأعلام ٢٧٨/٤).

(٣) انظر : دراسة الأغاني ١٩ .

(٤) انظر : دراسة الأغاني .

(٥) من مقالة د . شكري فيصل في مجلة الموقف الأدبي ، عدد ١٠٧ - ١٠٨ ، ص ٢٢٩ .

(٦) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٧) صناع الأدب ١٥٢ .

الخالد على وجه الدهر »[١] ، فأعشاه ذلك الإعجاب عن مواضع الخلل فيه[٢] ، كما أني أظن أن اسم الكتاب لايدل صراحة على مضمونه ، وكان الأولى أن يسميه باسم آخر أكثر ملاءمةً لموضوعاته ، وهو « المجتمع العباسي من خلال الأغاني »[٣].

٦ - **أبو الفرج الأصفهاني :**

صدرت طبعته الأولى في بيروت ، عن دار المعارف ضمن سلسلة نوابغ الفكر العربي عام ١٩٥٥م ، والثانية عام ١٩٦٥م[٤]، ثم طبع ثالثة في بيروت عام ١٤٠٧هـ.

ترجم جبري في هذا الكتاب ، لأبي الفرج ، وتعرض لعصره ونواحي حياته ، ثم أورد منتخبات من آثاره ، وأغلب الظن أن هذا الكتاب تَتِمَّةٌ للكتاب السابق ( دراسة الأغاني ) .

٧ - **محاضرات عن محمد كرد علي :**

ألقاها على طلبة قسم الدراسات الإدبية عام ١٩٥٧م ، ثم طبعت في القاهرة في العام نفسه ، وأعيد طبعها في دمشق عام ١٤٠٩هـ .

وفي هذه المحاضرات عرض لعصر محمد كرد علي وثقافته ، ومشاركاته الصحفية ، وبعض آثاره وأسلوبه .

٨ - **أنا والشعر :**

هو في الأصل محاضرات ألقاها في معهد الدراسات العالية بالقاهرة ، ونشره المعهد بعد ذلك عام ١٩٥٩م[٥] ، ثم طبع في دمشق عام ١٤٠٦هـ .

٩ - **أنا والنثر :**

وهو كسابقه ، كان في الأصل محاضرات ألقاها في المعهد نفسه ، وطبعه المعهد بعد ذلك عام ١٩٦٠م[٦] ، ثم نُشر مرة أخرى في دمشق عام ١٤٠٩هـ .

---

(١) أنا والشعر ٧٩ ، وفي هذا الوصف تجاوز وغلو .
(٢) انظر : آراء بعض الذين نقدوا هذا الكتاب ، في الفصل الرابع من هذا البحث .
(٣) انظر : مبحث ( موضوعات الأغاني ) في كتابه المذكور ص ١٦ .
(٤) انظر : معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين ٩٤ .
(٥) انظر : المرجع السابق ٩٤ .
(٦) انظر : المرجع السابق ٩٣ .

ويعد كتاباه هذان خلاصة تجاربه الأدبية ، وتاجيْن لكتبه الأولى ، وماسجّله جبري فيهما « يبقى متألقا ، فيه حرارة أنفاس الشخصية الأدبية ، ونبض إحساسها، فالكتابان سيرة ذاتية من طراز خاص ... ينضحان بكثير من الألق والطرافة »[١]، كما أن فيهما نقدا ذاتيا ، يشتمل على اعترافات المؤلف وخصائص حياته الأدبية[٢].

لقد كان جبري ذا ولع بالكتب التي يتحدث فيها مؤلفوها عن أنفسهم وطبائعهم[٣]، ولعله بأثرٍ من هذا الولع كتب تجربتيْه في الشعر والنثر ، وغالبا مايكون تصوير الفنان لتجربته الذاتية من أبرع الأعمال[٤]، وهو مانلحظه بحق عند جبري في كتابيه هذين ، فقد كان مزوّدا فيهما بالصدق والجرأة والصراحة ، وأضفى عليهما من أسلوبه سحرا ومتعة .

١٠- <u>أرض السحر</u> :

وصف فيه رحلتيْه اللتين قام بهما إلى أمريكا عام ١٩٥٣ وعام ١٩٥٥م ، وطبع في دمشق عام ١٩٦٢م ، نشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي[٥].

١١- <u>أحمد فارس الشدياق</u> :

طبع أول مرة في دمشق عام ١٤٠٧هـ ، وقد تناول فيه عبقرية الشدياق ، من حيث التبحر في اللغة ، والقدرة على التصرف في الألفاظ ، والتمكن من الوصف والتصوير .

* * *

كما أن لجبري كتبا مخطوطة ، هي :

أ- <u>على صخور صقلية</u> :

ويتضمن رحلته إلى أوروبا ، التي قام بها في تشرين الأول عام ١٩٣٤م[٦]، وقال عنها : « بعثرت مقالاتها في بعض الصحف والمجلات ، وهي مجموعة عندي ، ولكنها تحتاج إلى قليل من التنسيق »[٧].

---

(١) صنّاع الأدب ١٥٢ .
(٢) انظر : اتجاهات النقد الحديث في سورية ١٨٥ .
(٣) انظر : تقريظه لـ ( يوميات هالة ) ص ٤٦٠ ، مجلة المجمع ، مج ٢٥ ، ج ٣ .
(٤) انظر : صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ١٧٢ .
(٥) راجع مبحث أدب الرحلات في هذا الفصل .
(٦) انظر : أنا والنثر ٨٨ .
(٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

٢ - **افكـــاري :**

ويتضمن مقالات وأبحاثا ، وتعريفات لعدة كتب ، نشر أكثرها مفرقا في مجلات مختلفة ، ومن الكتب التي عرّف بها تاريخ مدينة دمشق ، وشرح ديوان الحماسة ، وطبقات فحول الشعراء .

٣ - **دراسةٌ عن شوقي :**

ومما ضمّنها بحث النزعة الدينية عنده ، والنزعة التركية ، ووطنيته وروحه ، وتفسير بعض قصائده .

٤ - **تفسير نصوص :**

أشار جبري ، إلى أن له تفسيرا لنصوص طائفة من الكتّاب والشعراء كإبراهيم اليازجي[١] ، والبارودي[٢] ، جرى فيه على أصول الفرنجة ، من تحليل للفكرة والعاطفة والجمل[٣].

وقد أشارت الشركة المتحدة للتوزيع بدمشق إلى أنها تزمع طبع هذا الكتاب وكتاب على صخور صقلية ، وأفكاري ضمن أعماله الكاملة ، ولّما تفعل .

٥ - **كتاب عن اناتول فرانس :**

رأيت أصوله عند شقيقه رؤوف ، وهو صغير الحجم ، يتضمن قراءة في بعض آثار " فرانس " ، وحديثا عن أسلوبه ، وقد نشر جزءٌ منه في الصحف .

كما أن محاضراته التي ألقاها في جامعة الكويت ، ١٩٦٩-١٩٧٠م ، سوف تطبع في كتاب مستقل بعنوان :

- **محاضرات جامعة الكويت**[٤].

---

(١) إبراهيم اليازجي (١٦٢٣-١٣٢٤هـ) عالم بالأدب واللغة ، ولد ونشأ في بيروت ، من آثاره نجعة الرائد في المترادف والمتوارد ، وله مشاركة في الصحف ، كما أن له ديوان شعر ( الأعلام ٧٦/١ ) .

(٢) محمود سامي البارودي (١٢٥٥-١٣٢٢هـ) أول ناهض بالشعر العربي في العصر الحديث ، وقائد شجاع ، شارك في عدة حروب ، ونفاه الإنجليز إلى سيلان ، طبع ديوانه وله مختارات شعرية ( الأعلام ١٧١/٧ ) .

(٣) انظر : أنا والنثر ١١٢ .

(٤) نشرت هذه المحاضرات مفرقة في مجلة المجمع بدءاً من مج ٤٤ ، ج ٤ ، ص ٦٨٧ .

وكذلك مقالاته ، التي كان يكتبها لجريدة الأيام الدمشقية ، حيث ذكر لي شقيقه رؤوف أنه سيطبعها في كتاب بعنوان :

- **يوميات الأيام** .

كانت تلك كتبَه المطبوعةَ والمخطوطة ، وله زيادة على ذلك ، كثرة كاثرة من المقالات اللغوية والأدبية ، والبحثُ اللغوي غالب على إنتاجه المنثور[١] .

فأما مقالاته اللغوية في مجلة المجمع ، فقد تجاوزت الأربعين مقالة ، وتُشَكّل سلسلة ( بقايا الفصاح ) ثمان عشرة مقالة منها ، وأما مقالاته التي يعرّف فيها ببعض الكتب التي صدرت آنذاك ، أو التي حقّقت ، ويتناول بعضها بالنقد والدراسة والتحليل ، فقد بلغت أكثر من خمسين مقالة في مجلة المجمع العلمي وحدها .

وشارك أيضا في ترجمة بعض الآثار الغربية ، فنقل إلى العربية فقرات من قصة [ اليد اليسرى ] [٢] ، كما نقل مقاطع من رواية[٣] [ مدام بوڤاري ][٤] ، ونقل أيضا وصفا لعاصفة في بحر الهند ، من الأدب الفرنسي [٥] .

وإضافة إلى ماتقدم ، كتب جبري مقدمات لبعض الكتب ، مثل :

رواية ( الأزاهير الحمر ) لأميرة الحسني ، وترجمة ( رباعيات الخيام ) لنويل عبدالأحد ، وكتاب ( أناتول فرانس ) لوجيه بيضون ، وكتاب ( الأدب العربي المعاصر في سورية ) لسامي الكيالي .

وثمة كتبٌ أخرى ودراسات ، أشار إلى أنه ألّف بعضها ، وأنه يزمع تأليف بعضها الآخر ، ولكنها غير موجودة بين أيدينا ، إما لأنه همّ بتأليفها ولم يمهله الأجل ، أو لأنها ضاعت .

---

(١) انظر : شفيق جبري باحثا لغويا ٤٥ مقال في مجلة الموقف الأدبي بقلم عبدالفتاح المصري . وانظر أيضا : حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ١٢١ ، د . نشأة ظبيان ، دمشق ١٩٧٦م .

(٢) مؤلفها : غي دوموباسان .

(٣) للكاتب غوستاف فلوبير .

(٤) انظر : تأثير الغرب في أدب شفيق جبري ٣٢ ، مجلة الموقف الأدبي .

(٥) انظر : بين البحر والصحراء ٣١ .

فمنها دراسة له عن أبي تمام [١] والبحتري [٢] ، وأرجّح أن نواة هذه الدراسة هي مقالاته التي نُشرت عنهما في مجلة المجمع ، وهي قليلة .

ومنها دراسة عن الشعر في كتاب الأغاني [٣] ، وكتاب ثالث أراد أن يجعل عنوانه ( أنا والناس ) [٤] .

أما القصة والرواية ، فلم يُعن جبري بالتأليف فيهما ؛ لأن هذين اللونين لم يستفيضا في عصره الذي نشأ فيه [٥].

ومن آثاره النثرية : الرسائل الخاصة ، وليس بين يديَّ منها إلا عدد لايكفي لبيان خصائصها ، على أنه قد وصفها ، بأنها لايظهر عليها أثر من التكلف [٦].

أما خطبه ، فالمثبت منها قليل ، وفي مجلة المجمع [٧] و ( أنا والنثر ) [٨] نماذج ، يسير في أغلبها على الطبع ، ويضمّن بعضها تعبيرات وأساليب مأخوذة من التراث .

وبعد : فقد تأثر جبري بالمستشرقين في تأليفه ، فجاءت مشتملة على علم جم ، وتحليل جيد [٩] ، فأورث الفكر الأدبي المعاصر مع أبناء جيله الماضي ثروة تعز على النسيان [١٠].

---

(١) أبو تمام حبيب بن أوس ( ١٨٨ - ٢٣١ هـ ) شاعر أديب ، من أمراء البيان ، صاحب مدرسة البديع وعلمها في الشعر العربي ، من آثاره الديوان ، والحماسة ، كُتب عنه الكثير ( الأعلام ٢/١٦٥ ) .

(٢) انظر : مقالته سحر العبقرية ، مجلة المجمع ص ٢٢٣ ، مج ١٠ ، ج ٤ .

(٣) انظر : دراسة الأغاني ١٤ .

(٤) انظر : أنا والنثر ٥ .

(٥) انظر : اتجاهات النقد الحديث ٢١٤ .

(٦) انظر : أنا والنثر ١٨٦ .

(٧) انظر : مج ٢٦ ، ج ٣ ، ص ٤٤٩ .

(٨) انظر : ص ١٠٣ و ١٠٥ .

(٩) انظر : محاضرات في الاتجاهات الفكرية ٢٠٠ .

(١٠) انظر : مقال ( شفيق جبري وآراؤه النقدية ) بقلم محمد رجب البيومي ، المجلة العربية ، السنة ٥ ، العدد ٨ ، ص ٥٢ .

## ٢ - فنونه النثرية :

النثر الفني قرين الشعر في الأداء والتعبير ، إذ إنه لون من الكلام لايتقيد بوزن ولاقافية ، يعبر عن خلجات النفس بلغة ترتفع عن الحديث العادي ، والعلم الجاف [١].

ومن أنواعه المقالة والقصة والرواية والمسرحية ، والرسالة ، وأدب الرحلات ، والسير والتراجم ، مما عُرِف بعضه قديما ، وجدّ أكثره حديثا .

ومما أبدع فيه جبري وأجاد ، فن المقالة ، والسيرة ، وأدب الرحلات ، وسوف أفصّل الحديث في كل نوع ، مجملا أو مفصّلا بحسب إنتاجه فيه .

### أ - فن المقالة :

تُعَرّف المقالة بأنها « لون من النثر الفني ، يقوم على فكرة محددة تعن للكاتب عن موضوع ما ، فيضمّنها عناصره بطريقة مرتبة ، ويستدل عليها حتى تؤدي إلى نتيجةٍ معينة »[٢]، وشرطُها الأول « أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب »[٣].

وفكرة المقالة وموضوعها ، تسبق كل شيء ، فالغاية منها الاقتناع الفكري لا الانفعال الوجداني[٤].

ولقد كانت المقالة في هذا العصر ، ومازالت ، هي اللون الغالب في الإنتاج الأدبي[٥] وشهدت تطورا ملحوظا في المبنى والمعنى - وبخاصة في سوريةَ بلدِ الكاتب - فأما « تطور المبنى فيدل على أن المقالة قد انتقلت من طور العناية بالسجع والتزويق اللفظي ، إلى طور العناية بالكلام المرسل ، وتطور المعنى يدل على أن المقالة قد انتقلت من طور العناية بالتصوير إلى طور العناية بالتثقيف »[٦].

---

(١) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ٢٠٨ .

(٣) فن المقالة ٩٥ ، د . محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦م .

(٤) انظر : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ٩٦ ، سيد قطب ، دار الفكر العربي ، غير مؤرخ .

(٥) انظر : المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث ٦٥ ، د . عطاء كفافي ، هجر للنشر والتوزيع ، ط الأولى ١٤٠٥هـ .

(٦) اتجاهات النقد الحديث في سورية ٢٢٢ بتصرف .

وكان دخول المقالة في المجلة ، بداية لرقيها ، فتنوعت ضروبها ، فظهرت المقالة العلمية ، وارتقت الاجتماعية والسياسية ، حين تضمّنت البحث العلمي الجاد ، والتحقيقات الموضوعية [١].

هذا ماكان من أمر المقالة في سورية بعامة ، أما المقالة عند جبري ، فلها مراحل خاصة وسمات ، وبدءاً فإنه لم يكن يكتب لمجرد الكتابة ، بل لابد من عوامل تثيره ، ومنها النزعات الأدبية ، والشعور القومي ، والجمال ، والطبيعة بخاصة أثر واضح في أدبه [٢].

ويمكن إجمال المراحل التي مرت بها المقالة عنده ، على هذا النحو :

**أولاً : مرحلة التجربة :**

وهي بداية كتابته هذا اللون من النثر ، ويمثلها مقالان ، الأول عنوانه : [ قياس فرضي لمعرفة علل تحوّل الأنواع ] نشره في ٨/ نيسان ١٩١٤م [٣]، وقال عنه : « لم أنشئ هذا المقال إنشاءً ، وإنما ترجمت » [٤]، والآخر عنوانه [ معرفة الأفعال النفسية بالملاحظة ] نشره بعد الأول بأشهر [٥].

وفي مرحلة التجربة هذه خاض في موضوعات عميقة ، لم يكن مستعدا لها ، وخلط فيها بين أسلوب العلم ، وأسلوب الأدب ، واستمد أفكارها من الترجمة والنقل [٦].

**ثانياً : مرحلة التوسع في الاستفادة من العلم ومما نُقل عن الغرب :**

قال شارحا هذه المرحلة : « فالطور الجديد الذي دخلت فيه مقالاتي ، إنما هو توسيع أفق المقال بالاستفادة من العلم ... وإذا شئت أن ألخص خصائص هذا الطور ، فإني أجد هذه الخصائص في ميلي إلى تأييد الفكر بشواهد من آفاق العلم ،

---

(١) انظر : النثر الأدبي الحديث في سورية ٢٣٤ .
(٢) انظر : رجالات في أمة ١/٩١ .
(٣) انظر : أنا والنثر ٢٨ .
(٤) المصدر السابق ٢٩ .
(٥) انظر : المصدر السابق ٣١ .
(٦) انظر : أنا والنثر ٣٠ .

وباستطرادات كثيرة ، وبضرب أمثال مختلفة ، حتى تكون الفكرة واضحة قوية »[١].

وفيها تأثر بآراء عدد من الكتاب الغربيين ، وصار ينقل بعض أقوالهم ، وينسج على منوالهم ، وقال إن اتصاله بهم أدخل على أسلوبه شيئا من اللين والرقة [٢].

وفي المرحلتين الأوليَيْن ، كان يصرف همه إلى اللغة والألفاظ ، لأنها مقدمة عنده على الفكر [٣]، ومن حيث الأسلوب ، يذهب بعض الدارسين ، إلى أنها صورة من مقالات الرافعي وأحمد أمين[٤] والزيات [٥].

ولقد لخّص جبري هاتين المرحلتين في قوله : « بدأت بالمقالات ، ولاهم لي فيها إلا اللفظ ... ثم تحولت إلى مقالات أوسع أفقا ، جمعت فيها بين الأدب والعلم ... ثم صرت إلى عالم آخر ... فاتصلت بكتاب من أكبر كتاب فرنسة ، فأخذت عنهم »[٦].

ثالثاً : مرحلة المقالات الأدبية :

وفي هذه المرحلة ظهرت شخصيته الأدبية ، وتميز أسلوبه ، وبدأ يكتب مقالات يستمدّ فيها من التراث العربي ، ويستفيد منه استفادة الواعي ، مازجا ذلك بما ثقفه من قراءته الواسعة في الأدب الأوروبي ، والفرنسي بخاصة .

ومن مقالاته في هذه المرحلة [ بلاغة العواطف [٧]، و [ الشعر وحي يوحى ] [٨]، و [ لاقديم ولاحديث ] [٩].

---

(١) المصدر السابق ٤٦ و ٤٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق ٥٧ .

(٣) انظر : أنا والنثر ٤٣ .

(٤) أحمد أمين ( ١٢٩٥-١٣٧٣هـ ) عالم بالأدب والتاريخ ، كان من أعضاء المجامع اللغوية ، ويعد من المكثرين في التأليف ، ومن آثاره فجر الإسلام ، وفيض الخاطر والنقد الأدبي وحياتي . ( الأعلام ١٠١/١ ) .

(٥) انظر : صناع الأدب ١٤٤ ، وأحمد حسن الزيات ( ١٣٠٢-١٣٨٨هـ ) صاحب الرسالة ، أديب من كبار الكتاب ، ذو أسلوب ناصع جميل ، من كتبه وحي الرسالة ودفاع عن البلاغة ، وتاريخ الأدب العربي ، وله مترجمات عن الفرنسية . ( الأعلام ١١٤/١ ) .

(٦) أنا والنثر ٥٨ .

(٧) انظر : المصدر السابق ٦٨ .

(٨) انظر : أنا والنثر ٧١ .

(٩) انظر : المصدر السابق ٧٤ .

**رابعاً : مرحلة المقالات السياسية :**

بدأها إبان الانتداب الفرنسي ؛ لما رأى أن المقالات التي تتناول الوضع السياسي ، وتصف النقمة عليه ، تصادف هوى في القلوب [١].

ومعلوم أن أسلوب المقال السياسي ، ينبغي أن يكون سهلا بعيدا عن الزخرفة ، معتمدا على إثارة العواطف [٢] . من أجل ذلك كان جبري يحصر همه في هذه المقالات في التشنيع ، « حتى تستحكم كراهية الانتداب ، وكراهية رجاله في البلاد ، وحتى تؤدي هذه الكراهية إلى تقوية روح الحرية والاستقلال » [٣].

وكان يمزج السياسة بالأدب ، فكانت مقالاته لاتخلو من إشارات سياسية ، كمقال [ حديث في دار الدكتور طه حسين ] [٤]، وربما جاءت السياسة عَرَضا ، كقوله حين تحدث عن العلاقة بين اللفظ الأصل ومايتفرع عنه « يقول الفيروزبادي[٥] : الآكل الملك ، والمأكول الرعية ، فأي صلة أقوى من هذه الصلة ... لاسيما في عصر نرى فيه بأعيننا بعض الملوك كيف يأكلون الرعية أكلا » [٦].

وتغلب على مقالاته السياسية ، الصفات الخطابية ، والأسلوب السهل الواضح ، مشبها بذلك أغلب كتاب المقالة السياسية في عصره [٧]، ومن مقالاته التي تميزت بالعنف والشدة ، مقال [ رئيس جدد ، ونواب جدد ] ، و [ حكاية جنرال ] [٨].

---

(١) انظر : المصدر السابق ٩٧ .

(٢) انظر : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ٧٨ ، د . السيد مرسي أبو ذكري ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م .

(٣) أنا والنثر ٩٧ .

(٤) انظر : المصدر السابق ٩٨ ، وطه حسين (١٣٠٧؟ -١٣٩٣هـ ) من كبار الأدباء ، جدد مناهج وأحدث ضجة في عالم الأدب العربي ، من آثاره ذكرى أبي العلاء وعلى هامش السيرة ، والأيام . ( الأعلام ٢٣١/٣ ) .

(٥) الفيروزبادي (٧٢٩ - ٨١٧ هـ ) من أئمة اللغة والأدب ، كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير ، من أشهر كتبه القاموس المحيط ، وله مصنفات كثيرة . ( الأعلام ١٤٦/٧ ) .

(٦) أنا والنثر ١٥٩ .

(٧) انظر : الأدب العربي المعاصر في مصر ٢٠٥ .

(٨) من مجموع مقالات في حوزة شقيقه رؤوف .

**خامساً : مرحلة المقالات اللغوية والنقدية :**

كان جبري شغوفا باللغة ، محبا للبحث في أسرارها ودقائقها ، مما حدا ببعض الدارسين أن يصفه بأنه درع من دروع اللغة العربية [١]، أما أهمّ مقالاته اللغوية فهي سلسلة بقايا الفصاح ، وكان يجري فيها على البدء بالفكرة وتقريرها ، أو طرحها على شكل سؤال ، وقد يبيّن الغاية التي من أجلها عقد المقالة ، ثم يشرح الفكرة أو يجيب عن السؤال بأسلوب منطقي متدرج [٢].

وقد ينوّع القول والموضوعات المعالجة ، وتتراوح مقالاته بين الطول والقصر ، ويقع أحيانا في تكرار الفكرة ، ومن سمات بعض مقالاته أنها تصطبغ بصبغة الخاطرة[٣].

أما مقالاته النقدية ، فيدخل تحتها تعريفاته بالكتب ، التي كان ينشرها في مجلة المجمع ، وقد جرى عند تعريفه بالكتاب على عرضه أولا ، ثم الإعراب عن رأيه الخاص ، إلى جانب إعراب المؤلف عن آرائه ، وكان يظهر محاسن الكتاب أكثر من مساوئه ؛ لأنه يرى فائدة النقد في ذكر المحاسن [٤].

ولكن هذا الاهتمام بالمحاسن ، جرّه إلى المجاملة التي تفقد المقالة قيمتها ، ولعل الدليل على هذا تكرار جمل بعينها مثل أن يقول: « إنك لاتفرغ من قراءة كتاب (كذا) إلا امتثلته نصب عينيك » [٥].

وفي عرضه للكتب ، يعمد إلى التنبيه إلى مافيها من الأغلاط اللغوية ، والعجمة ، كقوله مثلا : « فقد أخذت بمخنّق أسلوبه رائحة غريبة ، فأسلوبه فيه شيء من رائحة اللغة الفرنسية ، وفيه شيء آخر من العربية غير المصقولة » [٦].

---

(١) انظر : مقال ( شفيق جبري في ذمة الله ) بقلم الدكتور عبدالكريم خليفة ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، ص ٢٠٤ ، العدد المزدوج ٧ – ٨ ، السنة الثالثة ، صفر ورمضان ١٤٠٠ هـ .

(٢) انظر : مقال " شفيق جبري باحثا لغويا " لعبدالفتاح المصري ، ص ٤٢ ومابعدها من مجلة الموقف الأدبي ، العدد ١١٣ ، أيلول ١٩٨٠م .

(٣) انظر : المرجع السابق ٤٢ ومابعدها ، وانظر كذلك : حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ١٢١ .

(٤) انظر : أنا والنثر ١٤٣ .

(٥) انظر مثلا : تقريظه لكتاب " الفرزدق " لخليل مردم ، مجلة المجمع مج ١٦ ، عدد ٩ و ١٠ ، ص ٢٩ ، ١٣٦٠هـ .

(٦) من عرضه لكتاب " في أوقات الفراغ " لمحمد حسين هيكل ، مجلة المجمع مج ١٠ ، ج ٨ ، ص ٥١٠ .

- **هيكل المقالة :**

لايمكن الحكم بوجود هيكل واحد للمقالة عند جبري ، ولكن الغالب في مقالاته أن تتضمن مقدمة وعرضا وخاتمة ، ولكل مقالة عنوان .

١ - **عنوان المقالة :**

ولاخلاف في تأثيره في القارئ ؛ لكونه - إن كان جيدا - يثير اهتمامه ، ويلفت انتباهه ، ويدل على روح الكاتب ووجهته [١].

وقد سار في اختيار عنواناته عدة سيَر ، فحينا يجعل العنوان تقريرا لخلاصة المقال ، مثل : لم ينصفوا صاحب الأغاني ، شاعرية أبي فراس ، كثرة المصادر والأسماء ، خبث المتهكمين .

وحينا يجعله طريفا مشوِّقا ، مثل : إبليس يغني ، أديب في السوق ، فن الشيخوخة .

وقد يأتي به مباشرا واضحا ، مثل : بدء الأدب الحديث ، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره ، ألعاب الصبيان عند العرب .

أو يجعله مثيرا للعواطف ، مثل : أيها العرب اتحدوا .

وفي الغالب ، كانت عنواناته في بداية أمره ذات طابع علمي جاف ، مثل : تنازع الطبقات ، الظواهر والبواطن ، دولة العمال ، صفحة من تاريخ العرب ، ولكنه بعد ذلك مال إلى جعل العنوان ذا جاذبية ، فصار يختار اللفظ الموحي ، والتعبيرات الشاعرية ، مثل : وطننا الروحاني ، المرأة هذا اللغز الأدبي ، مرونة دمشق ، روح الشاعر ، فن التفكير ، وطننا العقلي .

أما مقالاته الصحفية ، فإن عنواناتها اتصفت بالطول، وكثرة المتعاطفات ، مثل : مقال [ لحمنا ودمنا وروحنا ، التدجيل والدجالون ] [٢]، ومقال [ وفاء السود ، غدر البيض ، أخلاق الغابات ] [٢]، وقد يجعل فيه شيئا من ألفاظ العوام ، مثل : مقال [ أكل وشرب ونوم ، وطق حنك ، هذه هي الحياة التي فتحنا أعيننا عليها من خمسين سنة ] [٢] ، وكما هو ملحوظ ، اجتمع في هذا العنوان متعاطفات كثيرة ، ولفظ عامي ،

---

(١) انظر : المقالة الأدبية ٥٩ ، د . عطاء كفافي .

(٢) نشرت هذه المقالات في أعداد مختلفة من جريدة الأيام السورية عام ١٩٦٢م .

وطول ، علما أنه لم يكن دقيقا في الدلالة على المضمون .

ب - **مقدمة المقالة :**

أما مقدمة المقالة ، فإن أغلب الكتاب يصدّرون مقالاتهم بحادثة صغيرة ، أو قصة قصيرة ، أو خاطرة مناسبة [١] ، حتى تكون جاذبة للقارئ ، حاملة له على متابعة المقالة إلى نهايتها [٢] .

وقد جرى صاحبنا على وضع مقدمة لمقالاته ، تختلف من مقال لآخر ، فحينا يجعلها تلخيصا لمضمون المقال ، مثل قوله في مقال عنوانه [ روح الشاعر ] : « إن لكل شاعر روحاً خاصة ، تغلب عليه في جملة شعره » [٣] .

وقد تكون المقدمة استفهاما ، كما في قوله في مقال [ فن الشيخوخة ] : « هل من سبيل إلى التفلت من الشيخوخة ؟ أو هل من سبيل إلى أن نشيخ شيخوخة حسنة » [٤] ، وهو بهذه التساؤلات الطريفة يثير انتباه القارئ ، ويدعوه لقراءة المقال .

وربما ضمّن المقدمة نصا منقولا عن غيره ، كما في مقال [ أحمد شوقي شاعر لم يظهر مثله من ألف سنة ] حيث أورد كلمة ابن المقفع ، لما انقطع عن الكتابة ، وهي قوله « تزدحم المعاني في صدري ، فيقف القلم لتحيره » ، ثم عقب عليها : « إننا في هذا المقام كابن المقفع ازدحمت عندنا المعاني لما مات شوقي » [٥] .

وربما نقل نصا ، ثم أعقبه باستفهام ، كما في مقدمة مقال [ فن العمل ] ، التي جاءت على هذا النحو : « من أقوال شيللي [٦] : ( فرح النفس في العمل ) ، ولكن ماهذا العمل الذي يدخل الفرح على النفوس » [٧] ، ويمكن أن نقول إن النصوص التي ينقلها ، هي الأصل الذي تنقدح منه الفكرة في ذهنه ، وعليها يبني آراءه ، ويبثها .

---

(١) انظر : المقالة الأدبية ٥٦ ، عطاء كفافي .

(٢) انظر : المرجع السابق ٥٥ .

(٣) راجع ص ٩٩ من المجلة العربية ، السنة الرابعة ، العدد الخامس .

(٤) راجع ص ٧ من مجلة الثقافة المصرية ، العدد ٣٨ ، السنة الأولى ٥ شعبان ١٣٥٨هـ .

(٥) راجع ص ٣٥٨ من ذكرى الشاعرين ، أحمد عبيد ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ .

(٦) شيللي ( ١٧٩٢ - ١٨٢٢م ) شاعر انجليزي ، من أهم شعراء المدرسة الرومانسية ، أحدث ضجة بنشر آرائه اللادينية ، وكان من أبلغ من دافع عن الحرية ، وله آراء في الشعر مشهورة . ( الموسوعة العربية الميسرة ١٠٩٢ ) .

(٧) راجع ص ٩ من مجلة الثقافة المصرية ، العدد ٤٧ ، السنة الأولى ، ١٠ شوال ١٣٥٨هـ .

وقد تكون المقدمة حادثة رآها الكاتب ، فتأثر بها ، وأحدثت في نفسه أثرا تولّدت منه فكرة ، أو لعل الفكرة كانت ناضجة عنده ، ولكن تلك الحادثة فتحت له مجال القول ، فمن هذا النمط مقدمة مقال [ بين الماضي والحاضر ] ، حيث ذكر فيها أنه رأى دورا تبنى ودورا تهدم ، فتخيل أن التي تُهدمُ تحسد التي تُبنى ، ثم خرج إلى ما أراد قوله [١].

ج - عـرض المقالـة :

ولابد فيه من وحدة الموضوع[٢] ، وقد كان جبري ملتزما بشرطه هذا ، فأغلب مقالاته ذات وحدة موضوعية ، إلا ماندر من استطرادات تخرج به عن الفكرة الرئيسة ، كما في مقال : [ رأي في الشعر الحر ] ، فقد خرج فيه إلى ذكر مدائح المتنبي لسيف الدولة ، مما لاصلة له بموضوع المقال [٣].

أما مقالاته الصحفية ، فإن أغلبها غير جارٍ على وحدة الموضوع ، بل كان يجمع فيها عدة فِكَر ، وهو في هذا يقلد معاصريه ، الذين يرون أن روح الصحافة اليومية تقتضي الإيجاز والسرعة ، والتنقل بالقارئ من موضوع إلى آخر ، مثال ذلك مقال : [ أكل وشرب ونوم ، وطق حنك ..... ] ، فقد جعله في فكرتيْن ، الأولى جعل عنوانها : كتابة اليوميات ، والأخرى عنوانها : أيام الكندوش [٤].

ويجب التنبه إلى كون جبري موقنا باختلاف أسلوب مقال الصحف اليومية عن أسلوب مقال المجلة الأسبوعية ، وعلى هذا المبدأ كان يكتب مقالاته ، ولذلك يجد القارئ أن مقالاته في جريدة الأيام - مثلا - لم تكن تجري على نهج واضح محدّد ، بل كان يطلق لقلمه العنان ، فتنثال الخواطر التي لايجمعها جامع أحيانا ، أو تكون بينها صلة ضعيفة .

---

(١) راجع ص ٢٤٤ من مجلة الكتاب ، السنة الثالثة ، المجلد الخامس ، الجزء الثاني ، ربيع الأول ١٣٦٧هـ .

(٢) انظر : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ٧١ .

(٣) راجع ص ٣٤ ، المجلة العربية ، السنة الثانية ، العدد الرابع .

(٤) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام عام ١٩٦٢م ، في حوزة شقيقه رؤوف ، والكندوش : شبه المخزن ، من الخشب ، يُوضع فيه القمح ( نقلا عن المقال نفسه ) .

د - **خاتمة المقالة :**

أما خواتم مقالاته ، فليست على حال واحدة ، فتارة يجعلها في جملة قصيرة ، كقوله في خاتمة عرضه لرواية [ سيِّد قريش ] : « والتأليف بين حقيقة التاريخ وبين خيال الرواية، هذا هو السحر الحلال الذي يروعك في سيد قريش »[١]، وهو هنا، يهدف إلى تجميع عناصر المقالة، مركّزة ومثبتة في نبرة حية، تبرز روح المقالة كلها[٢].

ومثل ذلك قوله في خاتمة مقال [ سلطان العوامل النفسية ] : « فللعوامل النفسية في حياة الأمم شأن عظيم ، ربما كان أعظم من شأن العوامل المادية »[٣].

وتبدو أهمية الخاتمة ، عندما يطول الكلام في الموضوع ، فتكون تلخيصا له ، وذلك بتحري الدقة والإيجاز ، وذكر أهم الفِكَر التي تناولتها[٤]. فمن ذلك خاتمة مقال [ لذة العقل والروح ] ، حيث قال فيها : « فهل لنا في حِكَم أولئك الحكماء ، وفي حياة أصحابها ، عبرة لنا في زمن ، كاد الناس فيه ينكرون كل لذة عقلية أو روحية ، ولايعتنون إلا بلذات المادة وحدها ، تلك اللذات التي أتعبت العالم في الحاضر ، وستُهلكه في الآتي إذا هي استمرت »[٥].

وقد يُشعركَ بأنّه انتهى من عرض فكرته ، حين يقول : فإن كان لحديثنا خلاصة، فهذه خلاصته ، أو وتحصيل المقال كذا وكذا [٦]، وهذا أسلوب جرى عليه كثيرا في مقالاته وكتبه [٧].

وربما جعل الخاتمة استفهاما تقريريا ، ليشاركه القارئ في إصدار الحكم ، مثل قوله في مقال [ وفاء السود - غدر البيض - أخلاق الغابات ] : « أفليس من المؤلم أن يكون الحيوان الضاري في القرن العشرين أحسن أخلاقا من الإنسان ؟ ! »[٨] .

---

(١) راجع ص ١٢٧ من مجلة المجمع العلمي مج ١٠ ، ج ٢ .
(٢) انظر : المقالة الأدبية ٥٦ .
(٣) راجع ص ٩ من مجلة الثقافة المصرية ، السنة الأولى ، العدد ٥١ ، ٨ ذو القعدة ١٣٥٨هـ .
(٤) انظر : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ٧١ .
(٥) راجع ص ٨٥٤ من مجلة الكتاب السنة ٢ ، المجلد ٣ ، الجزء ٦ ، جمادى الأولى ١٣٦٦ هـ .
(٦) انظر مثلا : مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ١ ، ص ٩٧ و مج ١ ، ج ٩ ، ص ٢٦٩ .
(٧) انظر مثلا : محاضرات عن محمد كرد علي ص ١١١ و ٨٩ و ٨٢ .
(٨) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام ١٩٦٢م .

وقوله في مقال [ لحمنا ودمنا وروحنا ٠٠ ] « أفرأينا فائدة مطالعة المعاجم٠٠٠٠ »[١].

وربما طالت الخاتمة ، تبعا لطول المقال نفسه ، كما في مقال [ فن الشيخوخة ][٢]، ومقال [ أحمد شوقي شاعر لم يظهر مثله من ألف سنة ][٣].

## أنواع المقالة عند جبران :

### ١ - المقالة الأدبية :

وهي أكثر أنواع المقالة وروداً عنده ، حيث يصوغُ فيْها أفكاره بأسلوبٍ أدبّي رشيق ، وقد مرت أمثلة عليها ، ومنها كذلك مقالته [ الأدب ، أفقه - غايته - فعله ] ، ومما ورد فيها قوله : « وماينبغي للأدب أن يكون إلا ألهية ، يتلاهى بها العقل ، لكنها ألهية شريفة ، لاتشبه غيرها من الألاهي ، ماينبغي للأدب أن يكون إلا لذة الفكر وراحة البال »[٤].

### ٢ - أما المقالة العلمية :

فهي نادرة لديه ، ومثالها مقال [ سلطان العوامل النفسية ] ، ومما قال فيه : « غير أنا إلى جنب الفحم والبترول والكهرباء ، وغيرها من القوى المادية التي كان لها شأن عظيم في تاريخ الشعوب ، نجد قوى غير مادية ، كان لها في بعض العصور شأن أعظم »[٥]، فهو هنا يتحدث بلغة أقرب إلى لغة العلم ، وربما امتزج الأسلوب العلمي بالأدبي ، كما في مقال [ لحمنا ودمنا وروحنا ، التدجيل والدجّالون ] ، حيث ورد فيه حديث مفصّل عن مادة " دجل " ومشتقاتها ، ومعانيها ، بأسلوب علمي خالص ، تأتي في تضاعيفه وبين سطوره جمل ذات أسلوب أدبي ممتع[٦].

ذانك نوعا المقال عنده ، من حيث الأسلوب ، أما من حيث موقفهُ من الموضوع الذي يكتبه ، فإنا نجد عنده :

---

(١) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام ١٩٦٢م ٠

(٢) راجع ص ٧ من مجلة الثقافة المصرية ، السنة الأولى ، العدد ٣٨ ٠

(٣) انظر : ذكرى الشاعرين ٣٥٨ ٠

(٤) راجع ص ٩٣ من مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ١ ، شعابن ١٣٤٨هـ ٠

(٥) راجع ص ٩ من مجلة الثقافة المصرية ، العدد ٥١ ٠

(٦) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام ١٩٦٢م ٠

أ - **مقالات ذاتيـــة :**

ذات نزعة انطباعية ، مثل مقال [ دار الهدوء ] الذي يقول فيه : « سلام على جنيف ، سلام على هدوء شوارعها وبورها ، سلام على هذه الدور التي تظللها شجرات جرّدها الخريف من ورقها الأخضر ، فتناثر ورقها الأصفر من جميع جوانبها . . »[١] ، وبيّن في مافي هذه الجمل المتوالية ، ذات الجرس المتشابه ، من انفعالات صادقة تجاه مشاهد أنس بها الكاتب وتفاعل معها .

ومن مقالاته الذاتية ، ذات النزعة الاجتماعية ، مقال [ خطبهم وخطباؤهم ] ، حيث ذكر فيه أن خطبنا - معشر العرب طويلة مكررة ، وأننا «نستعين على قحط أفكارنا بخصب مترادفاتنا ، قارنا إياها بخطب بعض الأعاجم[٢].

ب - **مقـالات موضوعيـة :**

وهي كثيرة ، كأغلب مقالاته النقدية والسياسية ، وقد مرّ حديث عنها ، فيه إشارة إلى مزجه الأدب بالسياسة ، كما في مقال [ حكاية أمريكانية ] ، الذي سرد فيه قصة طريفة ، بأسلوب ممتع ، خلص منها إلى نقد الحكومة الفرنسية[٣].

ج - **مقالات ذاتية موضوعية :**

غير أن الغالب على مقالاته ، امتزاج الذاتية بالموضوعية ، مثل مقالاته التي يُعرّف فيها بالكتب ، حيث صرّح باهتمامه بذاته فيها ، بقوله : « إني أعنى في هذا التعريف بنفسي أكثر من عنايتي بالمؤلف »[٤] ، وقوله : « فكان تعريفي ذاتيا وموضوعيا في وقت واحد »[٥].

ومما امتزجت فيه الذات بالموضوع ، مقال [ وطننا الروحاني ] ، حيث أشار فيه إلى تقارب بلاد العرب ، في طبيعتها وطبيعة أهلها ، وأظهر شوقه ولهفته إلى اجتماع العرب بعد شتاتهم[٦] . ومثله مقال [ انحدار الأذواق ] الذي تحدث فيه عن تدنّي الذوق الأدبي ، والاهتمام بأشكال من الأدب رديئة ، وألمح إلى اهتمام الأمم المتحضرة

(١) أنا والنثر ٩٠ .
(٢) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام ١٩٦٢م .
(٣) انظر : أنا والنثر ١٠٠ .
(٤) المصدر السابق ١٤٩ .
(٥) المصدر السابق ١٤٢ .
(٦) راجع ص ٥٤٦ من مجلة المنهل ، مج ٢٢ ، عدد شعبان ١٣٨١هـ .

بالبيان ، ثم التفت التفاتة ذاتية ، فقال : إن عدم الاهتمام بالتجويد البياني ، عند طائفة من شباب هذا العصر « جرّ ... إلى عواقب وخيمة نشهدها في أدبنا في هذه الأيام »[١].

- **مميزات أسلوب مقالاته :**

أما أسلوب جبري في مقالاته ، فإن الوضوح غالب عليه ، في التعبير وفي بَسْط الفِكَر ، وفيه جمال البساطة وعدم التكلف ، كما أن جيَشان عواطفه يضفي عليها حسناً إلى حُسْن ، وتلك هي صفات المقالة الجيدة[٢].

ولو أنك رجعت الطرف في أنماط مقالاته ، لوجدته يؤثر الأسلوب السهل المرسل ، فلا يتكلف ولايتصنّع ، واقرأ قوله : « إذا رجعنا إلى بعض أدبنا في القديم ، فإنا لاننتفع في هذا الأدب بحسن البيان وحده ، وإنما ننتفع بما وراءه من أخلاق لاغنى لنا عنها »[٣]، تجدْ أنك تقرأ نثرا لا أثر فيه للصّنعة ، يسترسل فيه كاتبه ، فلا يحس القارئ بنبوّ كلمة ، ولاثقل لفظ .

وقد يعمد إلى الجمل القصار ، كقوله : « فلو اجتزأنا بآراء المتقدمين ، لجمدت القرائح ، ولنضبت الخواطر ، فإن لكل ناقد أسلوبا ، وإن لكل مؤرخ مذهبا .. »[٤].

وقد يتسلّل إلى نثره شيءٌ من اللغة الشعرية ، كقوله : « أخذت بمخنّق أسلوبه رائحة غريبة »[٥].

وربما عمد - عند إيراد النصوص - إلى التعليق عليها تعليقا يشرك القارئ في إصدار الحكم ، كقوله : « فأي بخل أطرف من هذا النوع من البخل ؟ ... فأي حجة أطرف من حجة هذه الجماعة ؟ ! »[٦].

وأسلوبه في مقالاته النقدية ، يتراوح بين اللين والشدة ، وإن كان الأول هو الغالب ، ومن المقالات التي علت فيها نبرته ، مقال [ انحدار الأنواق ] ، حيث هاجم

---

(١) راجع ص ٩٥٧ من مجلة الأزهر ، رمضان ١٣٧٩هـ .
(٢) انظر : المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث ٥١ .
(٣) من مقالة " البيان الصادق " ص ١٦ ، المجلة العربية ،السنة الثالثة ، العدد الأول .
(٤) من مقالة " نقد المؤرخات الأدبية " ص ١٦٤ ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٣.
(٥) من مقالة " عرض كتاب في أوقات الفراغ " ص ٥١٠ ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٨ .
(٦) من مقالة " البخلاء في كتاب الجاحظ ص ٣ ، المجلة العربية ، السنة الثالثة ، العدد السادس .

فيه أدباء عصره ، واتهمهم بعدم الرغبة في التجويد الفني ، ونعى على الصحف اهتمامها بسفاسف الأمور ، أكثر من اهتمامها بمقالات البلغاء ، وتحسر على ذهاب بعض أئمة البيان [١].

أما شخصيته فإنها ظاهرة في مقالاته كل الظهور ، لكونه يعمد كثيرا إلى إبداء رأيه ، ومناقشة آراء غيره ، غير أنك تجد شخصيته - في بعض المقالات - تتوارى خلف النقول الكثيرة ، مما يجعل مقاله حشو معارف ، مثل مقال [ خبث المتهكمين ] ، الذي أكثر فيه من الاقتباس من نماذج المتهكمين وأساليبهم ، من أدباء الشرق والغرب[٢].

أخيرا ، يمكن وضع نموذج لمقالاته ، حتى تتبيّن صورتها جيدا ، وهو مقال [ بين البحر والصحراء ] ، إذ نجده ينقسم إلى :

١ - **مقدمة** : ذكر فيها أنه قرأ كتابا عن البحر المتوسط ، فأعجب به ، ثم خرج إلى التفكير في الصحراء .

٢ - **موضوع المقال** : عرض لذكر الشباب ، ثورتهم على الأدب القديم القادم من الصحراء ، وميلهم إلى الأدب الحديث القادم من البحر ، ثم دافع عن الصحراء، وبيّن مآثرها ، وخلص إلى أن البحر والصحراء امتزجا ، وكادت الصحراء تغلب البحر ، وأشار إلى ضرورة الأخذ بأيدي أولئك الثائرين على القديم .

٣ - **خاتمة** : قال فيها : « فإذا لم نكن حكماء في التخفيف من ثورة الشباب على الصحراء ، فإنا نخاف أن تنقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، وحينئذٍ الموت الأحمر »[٣].

وهكذا، يجد الدارس أن مقالات جبري ، غلب عليها الطابع الأدبي، الذي يجمع بين الذاتية والموضوعية ، وأنه جرى فيها على نمطين : نمطٍ منسّق ذي مقدمة وعرض وخاتمة ، ويمثله مقالاته في المجلات ، ونمطٍ يُطلق فيه لأفكاره العنان دون تقيد بهيكل محدد ، ويمثله مقالاته الصحفية ، وأن أسلوبه في كلٍّ أسلوب سهل لاتكلف فيه ولاتعقيد .

---

(١) راجع ص ٩٥٧ من مجلة الأزهر ، عدد رمضان ١٣٧٩هـ .

(٢) انظر : ص ٨ من مجلة الثقافة المصرية ، السنة الأولى ، العدد ٢٩ ، ١ جمادى الآخرة ١٣٥٨هـ .

(٣) راجع المقالة في مجلة الكتاب ص ١٠٤ ، السنة الثانية ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، ذو الحجة ١٣٦٥هـ .

ب - فـــن الســـيرة :

فن السيرة نوع من النثر ، يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر ، تعريفا يطول أو يقصر ، ويتعمق أو يبدو على السطح ، وكلما كانت الترجمة أكثر أناقة وعناية بالثوب البلاغي ، كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ [١].

ومن الباحثين من يعد السيرة قصة تاريخية ، « لاتخلو من خيال يستحضر الماضي ، ويخلع على الشخصية صفة الحياة » [٢].

ومن تصدّى لكتابة السيرة ، لزمه أن يُلمّ بجوانب الشخصية التي يتناولها ، وأن يعرف المؤثرات في تكوينها ، و « أن يقرب ويبعد ، ويستبقي ويرفض ، وأن يضع ميزان الاختيار أمامه ، فما كل شيء يستحق التسجيل ، بل لابد له من إدراك نوقي دقيق » [٣].

إن فن السيرة من أقوى الفنون وأكثرها تأثيرا ، ولايقدر عليه إلا الموهوبون[٤] ، وفي أدبنا العربي قديما وحديثا ، سير كثيرة ، ولكن السير الحديثة استفادت من الآداب الغربية التي تفوق الأدب العربي في هذا الفن [٥].

والسيرة نوعان ، ذاتية ، وغيرية ، ولشفيق جبري آثار في كليهما كما سيأتي .

ا - الســـيرة الذاتيـــة :

وهي « التي يؤرخ الأدباء فيها لأنفسهم ، ويضمنونها سيرهم بأقلامهم » [٦]، ولاشك أن منزلتها بين فنون الأدب لاتنكر ، لكونها تصلنا بأدق طبائع النفوس ، وتسجّل لنا الحقائق ، ووقائع الأيام ، بأقلام من ارتبطوا بها ، وإن كان الصدق فيها محاولة لا أمرا متحققا [٧].

---

(١) انظر : التراجم والسير ٩ ، محمد عبدالغني حسن ، دار المعارف ، ط الثالثة ١٩٨٠م .
(٢) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ٣٥٢ .
(٣) فن السيرة ٨٤ ، د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، غير مؤرخ .
(٤) انظر : قمم أدبية ١٤ ، د . نعمات أحمد فؤاد ، عالم الكتب ١٩٦٦ .
(٥) انظر : فن السيرة ٥ .
(٦) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ٣٥٣ .
(٧) انظر : فن السيرة ١١٣ .

ولكتابة السيرة الذاتية شأن كبيرٌ في الأدب ، لأن الناس يحبون الوقوف على الأسرار [١]، ولكون التجربة الفردية جزءا من التجربة الإنسانية كلها .

وقد سجّل جبري سيرته الذاتية في كتابين ، هما:( أنا والشعر ) و ( أنا والنثر)، وطمحت به همته إلى تأليف كتاب ثالث ، يسميه ( أنا والناس ) ، ولكنه لم يفعل .

وواضح من عنوانيْ الكتابين أنه لم يقيّد فيهما أحداث حياته الخاصة ، بل عُني بعلاقته بالشعر والنثر فقط ، فهما إفضاء بأسرار الفن ، لا بأسرار الحياة [٢]، وهما من هذا الباب يشتملان على طرافة وجِدّة .

يقول في مقدمة ( أنا والنثر ) : « هذا كتاب أقص فيه قصة بياني ... كيف نشأت حياتي الأدبية ، وكيف تدرّجت هذه الحياة من أفق إلى أفق » [٣]، ولكنه مع ذلك تعرض في كتابيه لبعض ملامح حياته الخاصة ، كمراحل دراسته الأولى ، ورحلاته ، ومشاركاته الثقافية ، غير أنها بقيت أشبه بالهوامش ؛ لكونه مهتما بإبراز التجارب الفنية في كتابة الشعر والنثر .

وقد عزا شكري فيصل تأليف هذين الكتابين إلى ذاتيته التي طغت عليه ، وعزلته ، إذ إنها « دفعت به إلى أن يتحدث عن حياته الأدبية ، عن ذاته بذاته »[٤] ، وأثنى عليهما ثناءً عاطرا ، وبيّن شدة إعجابه بهما ، ورأى أنهما تضمنا سيرة من نوع خاص [٥]، وقال عن كتاب ( أنا والشعر ) : « ما أحسب أن أديبا عربيا استطاع أن يحدثنا عن تجربته الشعرية بمثل هذه الصراحة ، وهذا الوضوح الذي تنيره الأمثلة الحية » [٦].

وربما كان تأليف هذين الكتابين ، محاولة لإيجاد هذا النمط من السير الذاتية في أدب العرب .

---

(١) انظر : أنا والنثر ٧ .
(٢) انظر : أنا والشعر ٥ .
(٣) ص ٥ .
(٤) مقدمة الديوان ٢٤ .
(٥) انظر : المرجع السابق ٢٤ .
(٦) المرجع السابق ٤٢ .

ففي ( أنا والشعر ) ، تحدث جبري عن أول عهده بنظم الشعر ، وذكر بعض أشعاره الأولى ، والشعراء الذين أعجب بهم وحفظ بعض أشعارهم .

وكان صريحا ، وجريئا في نقد شعره ، حيث أشار إلى المعاني التي أخذها من غيره ، والألفاظ التي نقلها نقلا عن بعض الشعراء .

وخص الشعر الوطني بمبحث مستقل ، وكذلك الشعر الغنائي ، وشعر المناسبات والمراثي ، وتحدث عن مذهبه في النظم ، ووحدة القصيدة وصيغتها .

مما يؤخذ على الكتاب خروجه عن موضوعه الرئيس ، ففيه ثلاثة مباحث لاتمتُّ إلى سيرة الكاتب الفنية إلا بسبب ضعيف ، وهي : ( الفكر الرياضي في أدبنا ) ، و ( سحر العبقرية ، الشعر ) و ( جباران عنيدان ، مستقبل الشعر ) [١].

أما ( أنا والنثر ) فقد كان أكثر نضجا وإحكاما ، حيث جاءت مباحثه مرتبة متناسقة ، إذ بدأ بالحديث عن مدرسته الأولى وطرق التدريس فيها ، وضروب العلوم التي درسها ، وأثَّرت في توجهه الأدبي .

ثم فصّل أدوار كتابته ، وجعلها ثلاثة ، فالأول دور الاستعداد ، والثاني دور التجربة ، والثالث دور العمل ، وتحدث بعد ذلك عن الفنون النثرية التي شارك فيها ، كالتأليف والمقالات بأنواعها ، والرحلات ، والترجمة ، وتفسير النصوص ، والتعريف بالكتب .

كما أسهب في الحديث عن ولعه باللغة ، وتَتَبُّع شواردها ، وعقد فصلا خاصا بمذهبه في الكتابة ، جعله خاتمة للكتاب .

لقد استطاع جبري في كتابه هذا ، أن يعقد بينه وبين القارئ ، علاقة روحية ، لوضوحِ أسلوبه ، وقوة بيانه ، وصدق آرائه ، مما يجعلُ القارئَ يميل إلى التعاطفِ معه ، والتسليم بآرائه .

ويتبيّن القارئ كذلك ، أن جبري معجبٌ بنفسه ، من خلال بعض الحواشي التي ملأها بآراء قيلت في بعض كتبه ، وفيها ثناء بالغ عليه ، يتجاوز الحقيقة ، كقول بعضهم : إن جبري « هو علم النقاد في لغة العرب الحديثة غير مدافع »[٢] ، وكان في

(١) انظر هذه المباحث بحسب ترتيبها في الصفحات التالية من أنا والشعر ٧٨ - ١٠٧ - ١١٦ .

(٢) من مقال لمحمد لطفي جمعة ، نشرته جريدة البلاغ في مصر في العدد الصادر في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢م ، نقلا عن أنا والنثر ٨٥ .

مُكنته الاكتفاء باللمح دون الإطالة في النقل التي تدلّ على ولعٍ بالذات ونرجسية ، توشك أن تجعل القراء ينفضّون عنه .

غير أن مما يحمد له ، عدم اكتفائه بالسرد ، بل كان يعمد إلى الاستشهاد على كل طور من أطوار حياته الأدبية ، بما يجلوها جلاءً تاما ، من مقالات ورسائل وغيرها .

ومع كون هذين الكتابين ( أنا والشعر ) و ( أنا والنثر ) - كما قدمت - تسجيلا للتجربة الفنية ، إلا أنه يمكن استخلاص كثير من صفات الأديب ، وأخلاقه ، من خلال أسلوبه ، ونمط تفكيره ، والقضايا التي يلحّ عليها .

فمن جهة تقييد التجارب الفنية ، يشعر المتلقي أنه تجاه شخصية تعمد إلى الابتكار وعدم التقليد ، مما يساعد في فهم نفسيّة صاحبها .

وحين تجده ينقد شعره ونثره ، في صراحة لامجمجمة فيها ، تكبُر في عينك هذه الشخصية الواضحة الصريحة ، وتستبين صفة أخرى من صفات هذا الأديب ، وهي حب الذات ؛ لأن نقده لنفسه - كما يقول شكري فيصل [١] - جاء من قبل الخشية من أن يجور الناقدون عليه ، بأهوائهم المتباينة ، ومشاربهم المختلفة .

لقد كان هذان الكتابان ، أشبه بصوى وعلامات تنيرالطريق أمام الباحث في حياة جبري وأدبه ، وتدلّه على المواطن التي تحسن دراستها ، فهما بحق مصدران نفيسان لاغنى لدارس حياته وأدبه عنهما .

٢ - <u>السيرة الغيرية</u> :

وهي « التي يكتبها غير أصحابها ، ويختارون حوادثها بأنفسهم ، ويقومون على تنسيقها وتفسيرها ، ويصدرون أحكامهم عليها بالقبول أو الرفض ، وميزة هذا اللون أنه يمنح صاحبه الحرية في النقد والاختيار ، ولايجره إلى الغلو في النتائج والمبالغة في الأحكام » [٢].

---

(١) انظر : مقدمة الديوان ٢٤ " بتصرف " .

(٢) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ٣٥٥ .

ولكن تلك الحرية في النقد والاختيار ، يشوبها غير قليل من الخطورة عند إصدار الأحكام ، ومن أجل هذا كان شفيق جبري يقدّم رجلا ، ويؤخر أخرى ، في مسألة كتابة التراجم ، فهو يقول : « إني لاأستصعب مثل كتابة التراجم ... لأن فن الترجمة يستلزم مهارة لايملكها كل واحد من الكتاب ، إن صاحب التراجم يلزمه أن يبعث رجاله ... فضلا عما يحتاج إليه من نزاهة في الحكم ، وحسن نية في النقل »[١].

ولقد لمس جبري أن نمط التراجم في القديم مختلّ ترتيبا وتنسيقا ، وقال : إن أدبنا القديم مضطرب فكره الرياضي ، ويعني به تسلسل أجزاء الموضوع بحسب ترتيبها الطبيعي[٢] .

وألحّ في نقده لكثير من أساليب الترجمة قديما ، كإطلاق الأوصاف المتشابهة المتقاربة ، مثل قولهم : « فلان فرد دهره ، وشمس عصره ، وفلان أعجوبة الزمان ونادرته .. » ومن تعليقه الساخر على هذه الجمل قوله : « فكأن الكتاب والشعراء كلهم أعاجيب الزمان ونوادره وآحاد الدهر وشموسه »[٣].

وفي معرض نقده لكتب تاريخ الأدب في هذا العصر ، قال : إن تلك الكتب لم تبيّن « الآثار التي أبقاها شاعر من الشعراء في أهل عصره ، ولم توضّح العوامل التي عملت في هذا الشاعر حتى قال شعره ، ولاذكرت كيف نشأ خيال هذا الشاعر ، وكيف نما حسه وشعوره ، لم تبيّن الظروف التي قال في خلالها شعره »[٤].

وهو في تلك الآراء الناضجة ، يتفق مع كثير من معاصريه في رؤيتهم لفن السير والتراجم ، فأحد الباحثين يشير إلى أن غلبة العاطفة علينا ، جعلت ترجماتنا لعظمائنا تنقصها كثير من سمات الواقعية ، والنقد الحر الأصيل ، حتى لكأن المترجمَ له مبرأً من كل عيوبنا [٥]، ويشير آخر إلى أن فهم نفسية الشخصية أمر مهم عند دراستها[٦] ، ويذهب ثالث إلى أن المهم في كتابة السيرة ، هو عرض الحقائق عن

(١) من مقدمته لكتاب الأدب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي ، ٨ ، بتصرف .
(٢) انظر : أنا والشعر ٧٨ .
(٣) الجاحظ معلم العقل والأدب .
(٤) مقال ( نقد المؤرخات الأدبية ) مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .
(٥) انظر : قمم أدبية ١٣ .
(٦) انظر : صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ٦ .

المترجم له ، آنق عرض ، والمواءمة بينها ، وتحليلها على ضوء علم النفس ، وبيان أثرها في البيئة ، وأثر البيئة فيها [١].

إذاً فجبري يرى أن على الكاتب في هذا العصر ، أن يستخرج أكثر أحوال المؤلفين من مؤلفاتهم[٢] ، بل إنه يرى أنْ لاضرورة للاستعانة بآراء الآخرين فيهم ، كما أنه يرى أن من مقوّمات الدراسة الجيدة لحياة الأديب أو الشاعر ، أن تُصوّر نواحي شخصية كل منهما تصويرا كاملا [٣]، مع استقلال في الحكم [٤].

كانت تلك ملامح نظريته في فن كتابة السيرة ، فما مدى تطبيقه لما دعا إليه ؟!

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ، يلزم التذكير بآثاره في هذا المجال ، وهي :

١ - المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس .

٢ - الجاحظ معلم العقل والأدب .

٣ - أبو الفرج الأصبهاني .

٤ - محاضرات عن محمد كرد علي .

٥ - أحمد فارس الشدياق .

٦ - مقالات عن أناتول فرانس ( مخطوط ) .

لقد كان جبري أديبا ، يحب الانطلاق مع خواطره ، فلا يتقيد بمنهج محدّد في دراسة الشخصيات ، ولقد صرح بذلك في كتابه عن الجاحظ ، حيث قال : « وأسلوبنا في هذه الدراسة ، إنما هو الأسلوب الذي اتبعناه في دراسة شعر المتنبي ، فإننا لانتقيد بأحد ، وإنما ننظر في كتب الجاحظ ، فندون مايلهمنا إياه هذا النظر المطلق »[٥].

لقد كانت دراسته للمتنبي وللجاحظ مبنية على قراءة آثارهما ، واستنباط الخصائص العامة لكل منهما ، وتقييد الفِكَر ، والاسترسال في تقييد الخواطر التي يضم كلا منها عنوان مستقل .

---

(١) انظر : التراجم والسير ١٤ .

(٢) انظر : أبو الفرج الأصبهاني ٩ ، شفيق جبري ، مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ١٤٠٧هـ .

(٣) انظر : تقريظه لكتاب الجاحظ ، لخليل مردم ، مجلة المجمع مج ١٠ ، ج ١٠ ، ص ٦٣٧ .

(٤) انظر : مجلة المجمع ، مج ٧ ، ج ٤ ، ص ١٤٨ .

(٥) الجاحظ معلم العقل والأدب ٣٣ .

يقول جبري عن نفسه إنه مولع بالتحليل ، وبتقسيم الفكرة أقساماً ، وبتوضيح كل قسم على حدة[١] ، ويتضح ذلك من خلال فصول كتابيه هذين :

ففي دراسة المتنبي ، يعقد فصلا عن أخلاقه وآخر عن تعلمه ، وثالثا عن فلسفته ، وقد يجعل قضية من القضايا التي أثيرت حوله، في فصل مستقل، مثل ( هل كان المتنبي شعوبيا ؟ ) و ( نسب المتنبي ) ..

ومن المواضع التي أفاض فيها ، وأسهب في تحليلها قضية نسبه ، وأبدى عجبه ممن ترجموا له ، ولم يتحدثوا عن أصله [٢].

وفي دراسته عن الجاحظ ، كان من المباحث التي أولاها عنايته : حياته ، وثقافته وعصره ، وأصوله في التحقيق ، وشعوره الديني ، ومذهبه في التفسير ، وضحكه ، وتهكمه ، ومذهبه في النقد ، والأدب ، ثم تفكيره ، وفنه .

وفي كتابه هذا عن الجاحظ ، بدأت الناحية المنهجية في كتابة السيرة ، تظهر عنده ، وتصبح أكثر نضجا ، حيث أورد في مقدمته منهجه ، الذي سيسير عليه في تناوله لحياة الجاحظ[٣] ، ثم عقد فصلا عن حياته بدءاً بمولده ، وانتهاءً بوفاته ، ثم شرع في الحديث المفصّل عن ثقافته وفنه وما إلى ذلك ، ولم ينس أن يحقق سنة ميلاده تحقيقا علميا ، وكذلك اسمه ونسبه [٤].

على أن كتابه عن أبي الفرج الأصبهاني ، هو أكثر كتبه التزاما بالطريقة المنهجية ، وترتيبا وتنسيقا ، ففيه بدأ بالحديث عن عصر المترجم له ، ثم ثنّى بحياته ونشأته ، وأخلاقه ومشاركاته العلمية ، ثم عقد فصلا لجوانبه المختلفة ، فتحدث عنه شاعرا وناثرا ومؤرخا وراوية .

ولم يكتف بذلك ، بل زاد فصلا ، أورد فيه منتخباتٍ من آثار الأصبهاني الشعرية والنثرية ، وحلّل بعض نصوصه النثرية تحليلا أدبيا بديعا [٥].

---

(١) انظر : أنا والنثر ٨٢ " بتصرف " .
(٢) انظر : نسب المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٥ ، ص ٢٨٣ .
(٣) انظر : الجاحظ ٢٨ .
(٤) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٣٤ .
(٥) انظر : أبو الفرج الأصبهاني ٣٢ .

قلت – من قبل – إن جبري أديب ، يحب الانطلاق مع خواطره ، دون أن يتقيد بمنهج محدّد معلوم إلا ماندر ، فهو يترجم للشخصيات بروح الأديب ، الذي يحرص على انتقاء الألفاظ العذبة ، والخيالات اللطيفة [١].

وقد أوقعه هذا الاسترسال في تقييد الخواطر عن كل أديب ، في اضطراب المنهج ، فحينا تجد الفصول في الكتاب الواحد غير متناسقة [٢]، وحينا يقدم الحديث عن حياة الشخص قبل الحديث عن عصره[٣] ، وقد يُغفل الحديث عن حياته مطلقا ، كما فعل في محاضراته عن محمد كرد علي ، إذ بدأ بالحديث عن عصره ، ثم خرج إلى الحديث عن صحافته [٤].

كما أن عنصر القصة ، الذي لاتستغني عنه السيرة الأدبية [٥]، مفقود في كتبه ، إلا في مواضع قليلة [٦].

ومن المآخذ على كتبه في السيرة ، إكثاره من النقول ، حتى لتكاد تطغى على شخصيته وأسلوبه [٧]، وإنما كانت طريقته أن يلائم بين ماينقل ، ويندر أن تجد له تعليقا أو إشارة [٨].

كما أن دراسته للجاحظ ، أشبه بالطريقة المدرسية ، منها بالدراسة الموضوعية الناجحة ؛ ذلك لأنه يعمد إلى الإكثار من النقل ، وبث جمل تشرح أو توضح أو تربط أو تلخص الفكرة ، وفي نظري أنها دراسة سطحية ، كما أن عنوان الكتاب غير دقيق ، وكان الأولى أن يكون ( دراسة في كتاب الحيوان ) أو ( الجاحظ من خلال كتاب الحيوان )[٩].

---

(١) انظر : وطن المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ .
(٢) انظر مثلا : أحمد فارس الشدياق ، فصل ( ثورته ) ص ٧٧ ، وفصل ( كتبه في اللغة ) ص ١٩٥ .
(٣) انظر : المصدر السابق .
(٤) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٧ و ١٥ ، شفيق جبري ، مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ١٤٠٩هـ .
(٥) انظر : فن السيرة ٢٠ .
(٦) انظر مثلا : أحمد فارس الشدياق ٤٢ .
(٧) انظر مثلا : أبو الفرج الأصبهاني ١٣ – ١٤ ، والجاحظ ٨٦ – ٨٧ .
(٨) انظر مثلا : حياة المتنبي ، مجلة المجمع مج ١٠ ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ .
(٩) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١٢٥ مثلا .

وفي هذا الكتاب يستطرد جبري استطرادات كثيرة ، تخرج به عن الموضوع الرئيس[١] ، وأحيانا يطيل في شرح أمور يمكن اختصارها ، كإفاضته في الحديث عن المعتزلة ، وأصل تسميتهم وطبقاتهم وطوائفهم ، بحجة أنه يريد التهيئة لحديثه عن الجاحظية ، ومن استطراداته العجيبة خروجه إلى ذكر قصة واصل بن عطاء[٢] مع بشار ، وهذا في نظري خلل كبير في منهجه ، ولعله تأثر بالجاحظ في هذا الأسلوب من حيث لايشعر[٣].

وهو في كتبه كلها ، لايكتفي بسرد سيرة الشخص فقط ، بل يبث آراءه النقدية واللغوية والاجتماعية في خلالها[٤] ، ويناقش كذلك بعض الآراء التي لايوافقها ، كبعض آراء المستشرقين في الجاحظ[٥]، وربما عقد موازنة بين أسلوب المترجم له وأساليب غيره من عرب ومستشرقين[٦].

ومما يؤخذ على جبري ، في أغلب كتبه ، أنه لم يكن يتتبع التدرج التاريخي ، وتأثير الأحداث على نفس صاحبها ، وهو أمر مهم لكاتب السيرة[٧].

ومما ينبغي الإشارة إليه ، أن المؤلف أو كاتب الترجمة « يقبل على السيرة التي تعجبه أو تعجب روح العصر ، ونزعات القراء ، أو تثير لديه رغبة ذاتية ، لأن السيرة ... قد تكون تعبيرا ذاتيا عن نفسية كاتبها »[٨].

وانظر - لتصديق هذا الرأي - في الأعلام الذين كتب جبري عنهم ، تجدْ علاقة بينه وبين كل واحد منهم ، ولقد كان هو مؤمنا بأن الكتابة عن الأشخاص ، ينبغي أن يسبقها داعٍ نفسي .

---

(١) انظر : ص ٤٤ و ٥٠ و ٦٠ على سبيل المثال .

(٢) واصل بن عطاء الغزّال ( ٨٠ - ١٣١ هـ ) رأس المعتزلة ، من أئمة البلغاء والمتكلمين ، وهو الذي نشر مذهب الاعتزال ، من تصانيفه معاني القرآن ، وطبقات أهل العلم والجهل . ( الأعلام ١٠٨/٨ ).

(٣) انظر : مبحث ( المعتزلة الجاحظية ) ١٦٣ .

(٤) انظر مثلا : الشدياق ١٢٨ و ٢٠٠ ، وأبو الفرج الأصبهاني ٩ و ٤٠ ، ومحاضرات عن محمد كرد علي ١٠٢ و ١١٠ .

(٥) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١١١ .

(٦) انظر : المصدر السابق ٢٢٨ و ٢٣٦ ، وانظر : محاضرات عن محمد كرد علي ص ٨٢ .

(٧) انظر : فن السيرة ٨٣ .

(٨) المرجع السابق ٨٠ .

فقد أراد أحد الأدباء الكتابة عن أحد الأشخاص ، فعرض الأمر على جبري ، فقال له : « لا أنصحك بالإقدام على هذا العمل إلا في حالتين ، إما أن تكون تحب الرجل حبا جما ، أو تكرهه كرها جما »[١].

ولقد انطبق هذا القول على الذين كتب عنهم ، فهو يحبهم جميعا حبا جما ، ويعجب بهم كل الإعجاب ، أما الأشخاص الذين يكرههم كرها جما ، فقد حال حياؤه وصفاء نفسه دون أن يتناولهم بالنقد والتجريح .

ولكن ما مظاهر الاتفاق بينه وبين مُتَرجَميه ، التي جعلته يعجب بهم ويحبهم ؟

لو رجعت إلى مبحث ( شخصيته ) في الفصل الأول من هذا البحث ، لتبيّنت لك الصفات التي تصله بكل واحد منهم ، فهو معتد بنفسه كالمتنبي ، ومولع باللغة كالشدياق ، الذي يتفق معه أيضا في نظرته إلى الزواج ، ومترهب كأناتول فرانس ، ومحب للقديم وشغوف باللغة مثله أيضا[٢] ، ومشبهٌ الجاحظَ في إيثار الأسلوب السهل المشرق ، مع كثرة الاستطرادات [٣]، كما دعاه إعجابه الشديد بكتاب الأغاني ، إلى إفراد مصنّفه أبي الفرج الأصبهاني بكتاب مستقل ، يورد فيه ملامح سيرته وأدبه .

أما ترجمته لمحمد كرد علي ، فقد كان مدفوعا فيها ، بعوامل شخصية ، إذ كانا صديقين متصافيين ، وقد أولى الباحثون أهمية كبرى للكتابات التي كتبها باحثون في مجال السير والتراجم ، عن أعلام ارتبطوا بهم بالصلات الشخصية ، وعدوها في درجة الشهادة ، ويغلب على صلة التلمذة طابع الولاء والحب والدفاع [٤].

على أن المعاصرة ذات وجهين مختلفين ، فقد تكون من أسباب الحكم الصحيح على المترجم لهم ؛ لأن وجود كاتب السيرة في عصر المترجم له ، يكون أدعى إلى الإحاطة بكثير من نواحيه ، وقد تكون سببا إلى المجاملة على حساب الحق [٥].

---

(١) عشرة من الناس ٨٨ .

(٢) انظر : مجلة المجمع ، مج ٧ ، ج ٤ ، ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٣) وانظر بعض وجوه الشبه في مقالته ( وطننا العقلي ) ص ٢٤ ، جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٥١٨٥ الصادر في ١٩٩٣/٢/٧م .

(٤) انظر : صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ٢٥٥ .

(٥) انظر : التراجم والسير ١٠٦ .

إن كاتب السيرة ، ينظر إلى من يترجم لهم من عدة زوايا ، تتشكلّل بفعل العلاقة الشخصية ، أو بتأثير الرأي العام ، أو لتحقيق مأرب [١]، وأكثر هذه الزوايا تأثيرا العلاقة الشخصية ، والعلاقة النفسية - كما قدّمت - وهما علاقتان تفضيان كثيرا إلى المبالغة في مديح المترجم لهم ، وستر مثالبهم ، وشواهد ذلك في كتب جبري واضحة بيّنة ، فهو ينعت الجاحظ بأنه « جاوز أفق البشرية ، وحلق في جو ، لايصل إليه كل واحد من الناس »[٢]، ويجعل أبا الفرج الأصبهاني « على رأس الخالدين »[٣]، ويقول عن عبقرية الشدياق : إنها « تكاد تكون أعظم عبقرية في القرن التاسع عشر »[٤].

وتلك المبالغات في المديح ، تدفعه إلى الدفاع عنهم ، وتفنيد التهم الموجهة إليهم ، ولكنّ الحماسة والعاطفة تسيطران عليه ، فيأتي دفاعه عنهم سانجاً حينا[٥] ، ومتكلفا حينا [٦]، ومتغاضيا حينا آخر عن تهم لايجد لها ردا ولاتفنيدا [٧].

وليس معنى ذلك أنه لاينقد من يترجم لهم أبدا ، بل إنه يناقش كثيرا من آرائهم ، ومذاهبهم في الحياة والأدب ، فيرى - مثلا - أن من عيوب المتنبي تكرار المعاني[٨] ، وقد يقسو عليه ، فيصف بعض مراثيه بأنها شبيهة بصياح النوّاحات [٩]، ويناقش الجاحظ في رأي له في الشعر الجاهلي[١٠]، ويؤاخذه على ولعه بالإضحاك[١١]، وينقد صاحب الأغاني ، لإغفاله تحقيق بعض الروايات ، ويردّ بعضها مما لايقبله العقل[١٢]، كما يسخر من بعض أشعار الشدياق[١٣]، وينتقد ميله إلى غرائب الألفاظ

---

(١) انظر : الحركة الأدبية في دمشق ١٤٤ " بتصرف " .
(٢) الجاحظ معلم العقل والأدب ١٧٥ .
(٣) أبوالفرج الأصبهاني ٣١ .
(٤) أنا والنثر ١١١ .
(٥) انظر مثلا : دراسة الأغاني ٢١ و ٤٨ .
(٦) انظر : أخلاق المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٩ ، ص ٥٢٣ .
(٧) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١٧٤ .
(٨) انظر : عبقرية المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ١٢ ، ص ٧٢٢ .
(٩) انظر : إحساس المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ١٠ ، ص ٥٩٠ .
(١٠) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢١٧ .
(١١) انظر : المصدر السابق ١٩٨ .
(١٢) انظر : دراسة الأغاني ٦١ و ٥٩ .
(١٣) انظر : أحمد فارس الشدياق ٢٣٠ .

واهتمامه بها [١].

وعلى حبه لمحمد كرد علي ، وإعجابه به ، لم يُخْفِ عدم إعجابه بكتابه ( خطط الشام ) من حيث التنسيق والترتيب[٢] ، ولم يقف صامتا ، تجاه مايجده من تناقض ، في بعض أخلاقه وطبائعه[٣] ، بل زاد فتعقبه في بعض أغلاطه اللغوية [٤].

والحق أن نقداته تلك تحسب في صالحه ؛ لكونه ألغى عاطفته في هذه المواضع، وقال مايقبله الحق ، ويعضده الواقع ، ولو أنه تجرّد هذا التجرد في كل ماكتبه عنهم لكانت كتبه أعلى شأنا ، وأرفع قدرا .

ومهما يكن من أمر ، فإن ترجمة جبري لأولئك النفر ، كانت محاولة جادة منه لتقريبهم إلى الأذهان ، وبسط خصائص أدبهم ، وعبقرياتهم ، وقد « نهج فيها نهجا خاصا تجلى فيه شعوره الذاتي وذوقه الأدبي »[٥]، ولكنه لم ينهج نهجا علميا محدّدا ، فكان ذلك مما أوقعه في خلل المنهج ، واضطراب الترتيب .

علما أن بعض الدارسين ، ذهب إلى أن الدراسات الأدبية للشخصيات ، إذا كانت تنهج نهج شفيق جبري في دراسته للمتنبي مثلا أو الجاحظ ، تدخل تحت عنوان ( الاستعراض التصويري ) ، فلا هي من التراجم ، ولامن البحوث الأدبية ؛ لأن المؤلف يرسم بعض ملامح الشخصية ويستعرض بعض الحوادث التي صادفتها ، ويصور انفعالاتها بهذه الحوادث ، ويخلع الحياة على هذه الانفعالات ، ويدرس بعض آثار هذه الشخصية [٦].

يضاف إلى ذلك أن إحساس المؤلف بحياة مترجميه ، وظروفهم وحالاتهم النفسية ، وتطبيقها على تجاربه هو ، يجعل عنصر التجربة الشعورية ذا وجود حقيقي في ترجمة الشخصية [٧]، والتجربة الشعورية هي التي قلت عنها سابقا، إنها الصفات

---

(١) انظر : المصدر السابق ٢٠٧ .
(٢) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٦٩ .
(٣) انظر : المصدر السابق ٦٥ .
(٤) انظر : المصدر السابق ١١١ .
(٥) فصول في اللغة والأدب ١٤٧ .
(٦) انظر : النقد الأدبي ٩٤ ، سيد قطب .
(٧) انظر : المرجع السابق ٩١ " بتصرف " .

والعلائق ، والمواقف المتشابهة التي تربط بين المؤلف وبين من يترجم لهم ، وهي جليّة كل الجلاء في علاقة جبري بالأعلام الذين كتب سيرهم .

ولاشك أن توافر التجربة الشعورية الحية ، والصياغة الأدبية الموحية ، هي التي تصبغ السيرة بصبغة أدبية رائعة [١] ، تقرّبها إلى الأفهام ، وتأنس بها الأنواق .

بقيت كلمة أخيرة ، وهي أن جبري روى كلمة لأناتول فرانس ، يقول فيها : إن الذين « يتبجّحون بأنهم يضعون في مؤلفاتهم شيئا غير لواعج أنفسهم ، فهم واهمون » [٢] ، فهل كان إيراده لهذا الرأي دون نقاش إقراراً به ؟ أي أنه عندما كتب سير أولئك الأعلام إنما كان يتحدث عن نفسه ؟ !

---

(١) انظر : النقد الأدبي ٩٢ .

(٢) شيء عن أناتول فرانس ، مقال بقلم شفيق جبري ، ص ١٥٦ ، مجلة المجمع ، مج ٧ ، ج ٤ .

ج - **أدب الرحلات :**

يعد أدب الرحلة من فنون النثر التي عرفها العرب قديما ، « وكانت الرحلة عنصرا قويا في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهرة »[١]، وقد ظهرت في هذا الفن مصنفات كثيرة ، واشتهر كثيرون برحلاتهم ، وظل هذا الفن يتطور ، حتى جاء العصر الحديث ، فتغيرت سماته تبعا لعدة عوامل ، وازدهر ازدهارا كبيرا .

فبعد أن كان في القديم ، لايخرج غالبا عن تحديد المواقع ، ووصف الطريق ، وتسجيل الأحداث التي تقع ، « أخذ في أدبنا المعاصر طابعا جديدا ، هو صورة التغير النفسي ، ورسم الأثر العاطفي والوجداني للكاتب »[٢].

وعلى أي حال ، فإن بعض الباحثين يذهب إلى أن « الرحلات من أهم فنون الأدب العربي »[٣]، وربما دعاه إلى ذلك أن هذا اللون من الأدب ، يمكن أن يعد علما مطبوعا بالطابع الأدبي ، أو أدبا بالمفهوم القديم ، وهو الأخذ من كل فن بطرف[٤] ، أي أنه فن تجتمع فيه أغلب الفنون الأخرى .

ولجبري رأي في كتب الرحلة ، يذهب فيه إلى أنها تمتع قرّاءها ؛ لأنها « تمهد لنا سبيلا إلى الاتصال بمبلغ نوق الكاتب وشعوره وفهمه ... وكثيرا مانشارك كاتب الرحلة في متعة المشاهد التي يشهدها ويصفها ، فكأننا نسايره في رحلته ، ونؤاكله ، ونشاربه ونجالسه »[٥]، هذا رأيه ، فهل أمتع هو قراءه فيما كتب من رحلات ؟ هذا ما أرجو أن يجيب عنه هذا الجزء من البحث .

لقد قام جبري بعدة رحلات ، سجّل عنها انطباعاته ، ومشاعره ، وهي على هذا النحو :

---

(١) الجغرافية والرحلات عند العرب ١٥ ، نقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٢م .

(٢) أضواء على الأدب العربي المعاصر ٧٦ ، أنور الجندي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٣٨٨ هـ .

(٣) الرحلات ٦ ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م .

(٤) انظر : مقال ( أدب الرحلات في الإسلام ) بقلم أحمد أبو سعد ، ص ٥٨ ، المجلة العربية ، السنة الأولى ، العدد ٢ ، رجب ١٣٩٦هـ .

(٥) أحمد فارس الشدياق ١٧٩ .

١ - إلى أوروبا ، في تشرين الأول سنة ١٩٣٤م [١]، ونشر مقالاته عنها في بعض الصحف والمجلات ، ثم جمعها تحت عنوان ( على صخور صقلية ) ولكنها لم تطبع .

٢ - إلى نجد والحجاز والعراق [٢]، في آذار سنة ١٩٣٥م ، ونشر عنها بضع مقالات في إحدى جرائد دمشق[٣] .

٣ - إلى الولايات المتحدة الأمريكية مرتين ، الأولى عام ١٩٥٣م[٤] ، والأخرى عام ١٩٥٥م[٥] ، وجمع مقالاته عنهما في كتاب سماه ( أرض السحر ) .

٤ - إلى بعض البلدان العربية ، كفلسطين ومصر ولبنان ، في أزمنة متفرقة [٦].

وحيث إنّ المتوافر بين يدي الباحث ، فيما يتعلق بأدب الرحلة عند جبري ، هو كتابه ( أرض السحر ) ، وبضع مقالات ، أثبتها في كتابه ( أنا والنثر) ، فسوف تكون أغلب شواهد هذا الجزء ، مأخوذة من ( أرض السحر ) .

و ( أرض السحر ) تسجيل لانطباعاته عن رحلتيه اللتين قام بهما إلى أمريكا في عامي ١٩٥٣م ، و١٩٥٥م ، كما قدمت .

وفي البداية ، يبدو على جبري حبه للتنسيق والتبويب ، وذلك صريح في نقده لرحلة الشدياق ، حيث قال : إن « عيب رحلته من حيث محاسن التنسيق ، أنه لم يبوبها ، على كثرة ماعالجه فيها من الموضوعات المتباينة في كل أفق من آفاق الحياة ، حتى إن القارئ يكاد يضيع في رحلة فوضى » [٧].

ورحلتا جبري إلى أمريكا ، منسقتان تنسيقا مختلفا :

**فالأولى** التي كان هدفه فيها حضور مؤتمر الثقافة في ( برنستن ) ، مرتبة زمنيا ، على حسب ترتيب الولايات التي زارها .

---

(١) انظر : أنا والنثر ٨٨ .
(٢) انظر : المصدر السابق ٩٢ .
(٣) انظر : المصدر السابق ٨٨ .
(٤) انظر : أنا والنثر ، الصفحة نفسها .
(٥) أرض السحر ٢٢٣ .
(٦) انظر : صناع الأدب ١٢٩ .
(٧) أحمد فارس الشدياق ١٧٥ .

أما الأخرى ، فقد نسّقها على هيئة خواطر ، جعل لكل خاطرة منها عنوانا ، فالأولى عنوانها ( الحية والأرنب ) [١] ، وضمّنها حديثا عن اليهود وطرقهم في خداع الرأي العام هناك ، والثانية عنوانها ( بلاد الفسيفساء )[١] ويعني بها اختلاف أساليب الحياة ، تبعا لاختلاف الأصول والأعراق ، وبلغ بخواطره تلك ثلاث عشرة خاطرة .

ولقد بدأ جبري برحلته هذه بداية تقليدية ، كأغلب الرحلات [٢] ، مشيرا إلى ظروفها . حيث ذكر تاريخ الرحلة ، وفكرتها وهدفها ، وبداياتها ، وماوقع له في أثناء سفره بين المطارات ، وماحدث له في كل محطّ من محاط رحلته ، ولكنه لم ينس أن يجعل في هذه المقدمة ، بعض مايثير حس القارئ وتشوقه ، وذلك فيما يتعلق بخرافة التشاؤم من السفر في يوم الأربعاء ، وهو اليوم الذي سافر فيه [٣] .

يقول جبري : « لكل كاتب رحلة نزعة تغلب عليه ، فلا يكاد يتشابه كاتبان في وصف أي رحلة » [٤] ، فما النزعة التي غلبت عليه في رحلته ؟ !

إن طابع رحلاته كلها - كما قال - أدبي محض ، فيه كثير من وصف الطبيعة [٥] ، غير أن لكل رحلة من رحلاته سمة ظاهرة ، ونزعة غالبة عليها ، فأما رحلته الأولى إلى أوروبا ، فقد غلب عليها الأسى لضياع مجد العرب ، لما رأى المجد الأوروبي [٦] ، ورحلة نجد والحجاز غلبت عليها الخواطر القومية والأدبية [٧] ، فهو فيها مولع بوصف الصحراء ، وشموخها ، بأسلوب أدبي ممتع .

---

(١) انظر : أرض السحر ٢٢٦ و ٢٢٨ .
(٢) انظر : أدب الرحلة ١٠٦ ، د . حسين نصار ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مصر ، ط الأولى ١٩٩١م .
(٣) انظر : المصدر السابق ٩ .
(٤) أحمد فارس الشدياق ١٧٩ .
(٥) انظر : أنا والنثر ٨٩ .
(٦) انظر : المصدر السابق ٩١ .
(٧) انظر : المصدر السابق ٩٢ .

ويقول أيضا في نبرة اعتزاز بتاريخ هذه الجزيرة العظيمة : « لولا نجد ، ولولا الصحراء ماعرفت السر في كثير من شعر جاهليتنا .. »[١].

أما رحلته الثالثة ( أرض السحر ) ، فقد غلب عليها وصف الطبيعة في المقام الأول ، ووصف الجامعات والمدارس في المقام الثاني ، ولقد صرّح بذلك فقال : « من الموضوعات التي امتزجت بأجزاء نفسي ... وصف الطبيعة ، ويكاد هذا الوصف في رحلتي « أرض السحر » يستغرق هذه الرحلة كلها ، ولكني لا أميل ... إلى الصور الغريبة ... فأنا ميال إلى الصور الواقعة »[٢].

وميله إلى الصور الواقعة ، وعدم اشتطاطه في الخيال ، جارٍ على أسلوب المعاصرين في أدب الرحلة ، إذ إن نسبة الخيال في كتب الرحلة بصورة عامة قليلة[٣].

ومن قوله في رحلته هذه ، مبينا ولعه بالطبيعة : « لايهمني شيء ... مقدار ماتهمني الفرجة ، فأكاد أغرق في مشاهد الطبيعة ، ولا أحول بصري عنها »[٤] ، وفي موضع آخر يصف مشهدا من المشاهد الساحرة : « عوضا عن أن تجد سلاسل من جبال ، فإنك تجد سلاسل من شجر يتصل بعضه ببعض ، وتجوز من حين إلى حين آخر أنهاراً كأنها بحيرات يطيف بها الشجر »[٥].

وفي موضع آخر من الرحلة ، يوضح سر تعلقه بالطبيعة ، فيقول : « قد يكون الحديث عن الطبيعة غالبا ؛ لأنها تصفي نفوسنا ، وتليّن عواطفنا ، وتشحذ شعورنا ، وتصقل خيالنا »[٦]، ويمكن أن أضيف سببا آخر لتعلقه بها ؛ مستقىً من ملامح شخصيته ، وهو حب العزلة والابتعاد عن الناس ، فكأنما وجد فيها الأنيس والصاحب .

---

(١) أنا والنثر ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ٦٢ .
(٣) انظر مقال : دعوة لدراسة أدب الرحلات في تراثنا العربي ، بقلم د. عبدالحميد النساج ، ص ٩٠ ، مجلة الفيصل ، العدد ١٨٦ ، ذو الحجة ١٤١٢هـ .
(٤) أرض السحر ١٧ .
(٥) المصدر السابق ٤٢ .
(٦) المصدر السابق ٧٣ .

واستمع إليه ، وهو يصف مشهدا من المشاهد ، في لفظ موحٍ ، وخيال عذب ، حتى لكأنك تراه بأم عينك ، وذلك في قوله : « استفقت في الصباح ، فألقيت نظري على البحر من الشباك ، البحر أمامي ، وموجه ماتنفك موسيقاه اللينة قريبة مني على بضع خطا ، يصل إلى الرمل الأبيض ، ثم يرتد عنه ، حرصا على محاسن القصور المبعثرة في أطراف الجبل ، وقد غرقت هذه القصور في شجر الجبل ، إني أكتب هذه الكلمات ، وموسيقى الموج ماتزال ملء أذني ، وحركاتها المنسقة ملء عيني ، والضباب يغطي الشجر ، والشجر يغطي البيوت ، فالطبيعة في ثوبين متناقضين : ثوب أبيض ، وهو ثوب الموج الذي يصل إلى أطراف الجبال والقصور ، ليحمل إليها ابتسام الحياة، وقد كان في ظلمة الليل أرهب من الموت ، وثوب أسود ، وهو ثوب الضباب الذي لايريد أن يتخلى عن تجهمه وكآبته »[١].

وقد يقال إن شغف الكاتب بالطبيعة ، ربما أوقعه في عواطف مسرفة ، واضطره إلى تكلف المواقف التي وقفها غيره ، عند كثير من المعالم الطبيعية المشهورة ، وهذا شرٌ مايعتري المقالة التي تصف الرحلة[٢]، وذلك ـ ق ، غير أن جبري لم يكن يصدر في وصفه لجمال الطبيعة ، وأثرها في نفسه إلا عن شعور صادق ، يدل عليه سهولة الأسلوب ، وبعده عن التكلف .

وإذا كان المرء لاينسى وطنه ، وإن بعد عنه ، ونأت دياره ، فإن جبري بلغ به الولع بوطنه درجة ، جعلته لايمر بأرض شجيرة إلا شبهها بغوطة دمشق ، ولابجبل أخضر إلا شبهه بجبل العلويين ، ولا بأرض جرداء إلا شبهها بالصحراء التي بين دمشق وبغداد أو بجزيرة العرب ، ومامر بنهر إلا تذكر بردى .. وهلم جرا ، وهذه سمة بارزة كل البروز في رحلته ، تكاد تجدها في كل صفحة[٣].

ولم يكن جبري يكتفي عند وصف الطبيعة ، بظواهرها ، بل كان يمزج مشاعره بها ، ويفرغ عليها من تأملاته مايزيدها سحرا ، استمع إليه يقول بعدما متّع ناظره من موج البحر وخضرة الشجر : « هذه هي الحياة ، ابتسام وعبوس ، فرح وحزن ،

---

(١) أرض السحر ٨٥ " بتصرف " .

(٢) انظر : فن المقالة ١١٦ .

(٣) انظر : أرض السحر ، الصفحات : ٣٢ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢٧ مثلا .

عمل وكسل ، مالي ولهذه الفلسفة ، لقد طرحت هذه الكلمات على الورق ، ثم رفعت رأسي وأخذت أتمتع من الموج وموسيقاه ، هذه هي الحياة في مذهبي »[١].

وفي موضع آخر يخاطب نفسه بلغة هامسة ، قائلاً : « فلتتمتع العين من هذه الطبيعة ، ومن هذا الجمال ، فإن الدنيا كلها أحلام »[٢].

إن قيمة وصف الرحلات ، تأتي من أنها تصور تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه ، والانطباعات التي تركها في نفسه [٣]، ولذلك كان اهتمام جبري منصبا على وصف طبيعة هذا العالم الجديد الذي يراه أول مرة ، ثم وصف الجامعات ومعالم الحضارة .

لقد بهره حسن اختيار مواضع الجامعات ، وبعدها عن المدن ، وأظهر إعجابه ببنائها وطلابها ومدرسيها [٤]، بل إنه خصص فصلا كاملا في رحلته الثانية ، وصف فيه حياة طلاب الجامعات ، سماه ( الدنيا الضاحكة ) [٥]، ولم ينس أن يعترض على ذلك النحو من الحرية ، الذي رآه عند أولئك الطلاب والطالبات[٦].

وقد يسهب في بعض المواضع ، واصفا بعض مايحدث في تلك الجامعات ، كفعله عند وصف مباراة رياضية ، حيث استغرق هذا الوصف قرابة أربع صفحات[٧].

إن جبري لم يكن يتوخى في رحلته الإحصاءات أو الدراسات ، أو الكلام على تاريخ البلاد وتقويمها ، وإنما توخى تدوين انفعالاته ليس غير[٨] ، وهو يفضل أن يقتصر كتّاب الرحلات على ذكر خواطرهم وهواجسهم ، دون النقل من الكتب ، لأنه يريد أن يرى روح الكاتب وشعوره في خلال رحلته[٩] .

---

(١) المصدر السابق ٨٦ .
(٢) أرض السحر ٢٦٥ .
(٣) انظر : فن المقالة ١١٥ .
(٤) انظر : أرض السحر ١٤٦ و ١٧٠ .
(٥) انظر : المصدر السابق ٢٥١ .
(٦) انظر : المصدر السابق ٢٥٢ .
(٧) انظر : أرض السحر ١٨٢ .
(٨) انظر : أنا والنثر ٨٩ " بتصرف " .
(٩) انظر : أحمد فارس الشدياق ١٧٥ .

ومع أنه يرى أن وصف أخلاق الأمم وطبائعها ، في أدب الرحلة لم يعد له حاجة[١]، عمد في رحلته هذه إلى وصف كثير من طبائع الأمريكان وخصائص حياتهم ، فكان يدوّن في كل يوم ، مايستوحيه من مشاهد وانطباعات [٢].

ومما أعجبه من أخلاقهم ، حبهم للعمل وتفانيهم فيه[٣] ، وكأنه حين ألحّ على هذا المعنى ، يعرّض بالعرب ، ويدعوهم إلى التأسّي بالأمريكان في هذا المجال .

كما وصف عيشتهم الناعمة ، وتوقع عواقب وخيمة لها ؛ لأن الناس يصعب عليهم الاخشيشان بعد الرفاهية[٤]. كما لفت انتباهه أن « الآلة في أمريكا غلبت على كل شيء ، ... على نواحي الحياة بحذافيرها ، حتى أثرت هذه الآلة على التفكير نفسه »[٥].

وهو - في انبهاره بتلك الحضارة ، وشغفه بوصف مظاهرها - كغيره من كتاب الرحلة في هذا العصر ، الذين أصبحوا يحفلون أكثر شيء بوصفها ، وذكر عظمتها ، ومايسايرها من تطور ثقافي وفكري وتقني[٦].

غير أنه لم يكن يصف الحضارة وصفا مجردا ، بل كان يعمد إلى بث خواطره ، وإبداء آرائه في كثير مما يرى ، فيقول مثلا : « لايقعنّ في خلد أحد أن المعامل وحدها إنما هي عنوان عظمة الأمة ... فإن أمريكا ... بلغت هذه العظمة بفضل الروح التي خلقت هذه المعامل »[٧]، ثم يستطرد قائلا : « خلق هذه الأمور المادية ، يحتاج إلى قوة معنوية ، في أول الأمر ، وهذه القوة المعنوية نجدها في ميراثنا الفكري الذي خلفه لنا العرب »[٨]، هكذا نجد أنه يعيش مع هموم أمته ، ويبحث عن مجالات رقيها ، وأسباب رفعتها ، ولم يلهه مارآه في أمريكا عن ذلك الهدف النبيل .

---

(١) انظر : المصدر السابق ١٨٠ .
(٢) انظر : مقدمة أرض السحر ، ص ٥ .
(٣) انظر : أرض السحر ٢٠٠ .
(٤) انظر : المصدر السابق ٢٠١ .
(٥) المصدرالسابق ١٩٩ .
(٦) انظر : مقال ( دعوة لدراسة أدب الرحلات في تراثنا العربي ) ٩٤ .
(٧) أرض السحر ٢٦٨ " بتصرف " .
(٨) المصدر السابق ٢٦٩ .

إن جبري لم يقف موقف المستلب ، الضعيف الشخصية ، تجاه مارآه هناك - كما وقع لكثير من الذين كتبوا عن الغرب ، وعادوا ممسوخي الهوية - فهو يصف مظاهر الحضارة ، ويذكر بعض صفات الأمريكان ، ويُعجب ببعض أساليب التربية عندهم[١] ، وبعض أخلاقهم[٢]، ولكنه مع كل ذلك ، لم يكن سلبيّ النظرة ، يغض الطرف عن مساوئ تلك الحضارة ، فهو ينتقد بعض أساليبهم في التعليم[٣]، ويشير إلى افتقارهم إلى الترابط الاجتماعي[٤] ، ويصور بعض ملامح الانحلال الخلقي[٥] ، والإفراط في منح الحرية للنساء ، ويبدي شكه من أن تبقى هذه الحرية بريئة من المزالق[٦].

ولاريب في أن كتب الرحلات ، تعد مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية[٧] ، وعبقرية الرحالة في هذا العصر تظهر بقدر مايقدم إلى الناس من كشف لطبائع الشعوب ، وتصوير لخصائص الأمم[٨]، وفي رحلة جبري ، كثير من المظاهر التي سجّلها بعين لمّاحة ، مما يتعلق بطبيعة الشعب الأمريكي .

فهو يذكر - مثلا - أن المرء عندهم ، لايغض من قدره أن يخدم مجتمعه في أي مجال[٩] ، كما يبدي إعجابه بحبهم للضحك واللهو ، وابتعادهم عن الحزن ، ويقول معلقا : « فكأن الناس في أمريكا لايعرفون الموت ... فلم يخلقوا للتفكير في الحزن والكآبة في كل ساعة »[١٠]، ومما لحظه أن الروح الأمريكية لاتقبل الجد حتى في أشد الأمور التي تستوجب الوقار ، وهي الجندية[١١].

---

(١) انظر : أرض السحر ١٢٣ و ١٣٦ .
(٢) انظر : المصدر السابق ٥٢ و ٧٣ .
(٣) انظر : المصدر السابق ٦٩ .
(٤) انظر : أرض السحر ١٩١ .
(٥) انظر : المصدر السابق ٩٢ و ٢٠٤ .
(٦) انظر : المصدر السابق ٢٦٢ .
(٧) انظر : مقال ( دعوة لدراسة أدب الرحلات في تراثنا العربي ) ٩٠ .
(٨) انظر : فصول في اللغة والأدب ١٣٠ .
(٩) انظر : أرض السحر ٦٣ .
(١٠) المصدر السابق ١٩ .
(١١) انظر : المصدر السابق ٩٣ .

ولكنه لم يتغلغل في بحث الأسباب ، التي جعلت هذا الشعب يتصف بتلك الصفات ، ولم يعمد إلى الموازنة بين صفاتهم تلك وبعض صفات العرب ، وإن كان كثيرا مايعرّض ببعض العيوب الاجتماعية عندنا .

ومما اهتم جبري به ، الاختلاط بالأمريكان ، والتعرف إليهم عن كثب ، فكان يقبل دعواتهم ، ويجتمع بهم ، ويصطحبهم في رحلات بالسيارة بين المدن[١] ، وقد يخص أسرة من الأسر بالوصف ، فيذكر حالتها ، وعدد أبنائها ، وأوضاعهم الاجتماعية[٢] ، كما حرص على الالتقاء بالأمريكان ذوي الأصول العربية[٣].

كذلك عُني بوصف سيطرة اليهود على الرأي العام الأمريكي ، وخطرهم ، وسعيهم لإحقاق باطلهم[٤] ، وتحدث عن تفاني بعضهم في خدمة فكرة « إسرائيل » حتى من بعض الشباب ، وأكد على أنهم يدرسون العربية وشؤون الشرق الأوسط ، لغايات سياسية ، وأله في الوقت نفسه أن العرب لايبذلون شيئا يذكر مقابل ذلك[٥].

أما المرأة في رحلته هذه ، فقد كان أكثر حديثه عنها عرَضا ، وأكثر مالفت انتباهه فيها ، انفلاتها ، وخروجها على طبيعتها ، وبيّن شكه في بقائها محصنة وهي على تلك الحال[٦] .

ولم يعجبه كذلك انهماكها في الأعمال ، ومزاحمتها الرجال ، وقال : « إن المرأة الأمريكية اشتطت في هذه السبيل اشتطاطا قد يؤدي في عاقبة الأمر إلى شيء من التنازع بينها وبين الرجل »[٧].

وفي مقابل ذلك وصف كثيرا من طبائع النساء هناك ، وأساليب الزواج والخطبة عند بعضهم[٨] ، وخص الفتاة الأمريكية بمزيد وصف ، فنعتها بأنها صريحة وغير

---

(١) انظر : أرض السحر ١٧٣ .
(٢) انظر : المصدر السابق ١٥٤ .
(٣) انظر : المصدرالسابق ١٢٠ .
(٤) انظر : أرض السحر ٤٧ و ٢٠٧ .
(٥) انظر : المصدر السابق ١٦٦ ، وانظر كذلك فصل ( الحية والأرنب ) ص ٢٢٦ .
(٦) انظر : المصدر السابق ٢٦٢ .
(٧) أرض السحر ٢١٧ .
(٨) انظر : المصدر السابق ١٨٩ .

معقدة [١]، ولم يُفتْ الفرصة حين رأى بعض المرضات ، فوصفهن ، وذكر أنسهنّ ، وتعجب من فرط حسنهنّ [٢].

لقد كانت رحلة جبري هذه ، في وقت اشتد فيه الصراع في فلسطين ، واضطربت كثير من أحوال الدول التي تسعى للاستقلال ، فكان من الطبعي أن يتأثر الفكر السياسي في أدب الرحلة عنده ، بنضال الأمم المضطهدة ضد مستعمريها ، وبخاصة في فلسطين ، وبعض البلدان العربية الأخرى [٣].

سافر جبري إلى أمريكا ، وقد حمل في قلبه الأسى البالغ ، بسبب تسلط اليهود، ومشايعة الغرب لهم ، ولذلك لم يجامل ولم يُدار ، حين زار هيئة الأمم المتحدة ، فقال حين رأى الذين يختلفون إليها : إنه « لم يشعر أن على وجه واحد منهم أثر الاقتناع بأن هذه المؤسسة قادرة على شيء » [٤].

وسخر سخرية مرة من بعض المندوبين العرب ، في تلك المنظمة ، وأشار إلى عدم مقدرتهم على امتلاك ناصية الكلام[٥] ، وتغلب المندوب اليهودي عليهم[٦] ، وأظهر استياءه من هذا الموقف ، وسماه رواية هزلية ، كما توقع من مندوبي العرب أكثر من ذلك [٧].

كما أن القارئ لرحلته ، يلمس روحا إسلامية غيوراً على الإسلام ، تدافع عنه بحماسة ، وتحاجّ دونه ، فمن ذلك أن رجلاً قال له إن صلواتكم تعطّل الأعمال ، فشرع يشرح له ويبيّن خطأ قوله ، وأطال في ذلك [٨]، ومن شواهد هذه الروح أيضا إسهابه في رد الشبهة ، التي تزعم أن العلم لايتصل بالإسلام [٩].

---

(١) انظر : أرض السحر ١٩٠ .
(٢) انظر : المصدر السابق ٨٠ .
(٣) للتوسع في بسط هذه الفكرة ، انظر : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة الحديثة ص ٣١٩ ، د . نازك سابايارد ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م .
(٤) أرض السحر ٢٠٦ .
(٥) انظر : المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٦) انظر : المصدر السابق ٢٠٨ .
(٧) انظر : أرض السحر ٢٠٩ .
(٨) انظر : المصدر السابق ١٤٢ .
(٩) انظر : المصدر السابق ٢١٩ .

ومن معاني ذلك ، أن جبري كان يريد من كِتَاب رحلته هذا أن يضم بعض آرائه ، ومذاهبه في الحياة ، وإن كان يشتط أحيانا في بعض الفِكَر ، متأثرا بتيارات قومية أو علمانية[١] .

ومما اهتم به جبري ، الالتفات إلى واقع العرب ، ونقد أوضاعهم وعاداتهم ، وذلك ضرب من النقد الذاتي ، لم يصدّه عنه كونه واحدا منهم ، بل كان صريحا كل الصراحة في نقد قومه ، وذكر بعض معايبهم ، قاصدا من ذلك التنبيه إلى ضرورة اطّراحها ، والأخذ بأسباب الحضارة والتقدم في كل مجال .

فمما أشار إليه ، عادة الجلوس في المقاهي ، لقتل الوقت ، بينما يحرص الأمريكيون على وقتهم كل الحرص[٢].

كما ألمح إلى بعض العادات الشرقية في الزواج ، ومايقع من مغالاة وكلف بالمظاهر[٣]، وانتقد كذلك كثرة الكلام وقلة العمل[٤]، وآله أيضا أن البعثات والسفارات المسلمة مقصرة تقصيرا كبيرا ، فيما يتعلق بشرح الإسلام وبيانه للناس في أمريكا[٥] .

ومما تميّز به أسلوبه في كتابة الرحلة ، الميل إلى الطرافة والظرف « من أجل إضفاء الحيوية ، وإبعاد الملل ، وإثارة التشوق لدى القراء »[٦]، وهو أسلوب يعده بعض النّقاد من مقوّمات كتب الرحلات[٧]، وقد كان هو نفسه يرى أن معالجة الموضوعات الجليلة ، بأساليب مشتملة على بعض الهزل ، تزيد من قوة التنبيه والتهذيب[٨]، ولذلك كان لايضنّ على قارئه بسرد بعض الطرائف التي لقيها هناك[٩]، بل إنه خصص فصلا لرواية بعض الطرف ، في رحلته الثانية ، وسماه (غرائب)[١٠].

---

(١) انظر : المصدر السابق ١١٤ .
(٢) انظر : المصدر السابق ١٩٥ .
(٣) انظر : أرض السحر ٥٢ .
(٤) انظر المصدر السابق ٤٢ .
(٥) انظر : المصدر السابق ١٤٣ .
(٦) أدب الرحلة ١٢٩ .
(٧) انظر : في المختبر ٢٠٢ ، مارون عبود ، دار الثقافة ، بيروت ، ط الثانية ١٩٦٤م .
(٨) انظر : بين البحر والصحراء ٦٣ .
(٩) انظر : أرض السحر ، الصفحات : ٤٣ و ١٩٨ و ٢١٦ مثلا .
(١٠) انظر : المصدر السابق ٢٥٧ .

ومن طرائفه التي أودعها هذا الكتاب ، قوله لما دخل معرضا للزهور : « أهذه هي الجنة ؟ ... لقد كنت أرى فيها كل شيء ، ماخلا أمرا واحدا لا أثر له ، وهو الحور العين ، فما كانت تقع العين إلا على عجائز ، تجر كل واحدة منهنّ نفسها جرا ... »[١].

كذلك روى أن سائحا يهوديا نسي دراهمه عند صاحب مقصف ، فصاح به وأعطاه إياها، ثم قال : « وهذه على ما أظن أول مرة ينسى فيها يهودي دراهمه »[٢] ، وهو تعليق بلغ الغاية في اللطف ، ويشبهه قوله - لما دخل مطعما ومعه شيخ معمم ، لفت نظر الفتيات - : « ترك بعضهن الأكل ، وأخذن يصعّدن النظر فيه ويصوّبنه ، فقد أتعبت هذه العمامة صاحبها ، وأتعبتنا ، وأتعبت الناس معا »[٣].

ويقترن بظرفه هذا ، سخرية مريرة ، وبخاصة حين يصف بعض الأشخاص ، فيأتي بالعجيب المدهش من الألفاظ الموحية ، المتمكنة في مواضعها ، كقوله في وصف شيخ يمني : « قصير القامة ، نحيف البنية ، قوي المعدة » ، فانظر إلى جمال قوله : قوي المعدة ، وتأمل ماينطوي عليه هذا الوصف من سخرية عميقة ، وقس ذلك بقوله في وصف آخر : « إنه مثل البرميل من حيث رشاقة القوام »[٤] ، ولو أنه اكتفى بتشبيهه بالبرميل ، لما أثّر في القارئ كل هذا التأثير ، ولكن جملة « من حيث رشاقة القوام » هي التي أثّرت المعنى ومكّنتْ له .

وقد يسهب في وصف موقف يجتمع فيه عدة أشخاص ، كوصفه بعض خطباء ميدان ( برشين ) في إحدى الولايات الأمريكية ، وهو وصف اجتمع فيه الظرف ، والسخرية ، والتعريض ، في أسلوب واضح لاغرابة فيه ، ولاتكلف ، وذلك حيث يقول : « شيخوخات متهدمة ، تعلو وجوه أصحابها صفرة مثل صفرة الموت ، كأن أجسامهم هياكل من عظم لالحم فيها ولادم ... بينهم عبد أسود مشفره نصفه ، أو عبدة كأنها سعف نخل تغني له ، ... هذا أنفه بارز يكاد يتحرك من الغضب ، وهذا عينه جاحظة ، وهذا ينظر إليك كأنه أبله ، يكلمك وأنت لاتعرفه ... يرفع حاجبا

---

(١) انظر : المصدر السابق ٢٦٤ .
(٢) أرض السحر ١٣٩ .
(٣) المصدر السابق ١٠٧ .
(٤) أرض السحر ١٥٩ .

ويخفض حاجبا ... ثم يهجم على خصمه الذي يناظره في الحلقة ، فتظن أنه يريد أن يأكله »[١].

وهذا أسلوب متماسك ، ينبض بالحياة ، ذو لغة واضحة ، سليمة من الخلل والعيب ، وهو الغالب على كتابه هذا ، غير أنك تجد لديه بعض الجمل المضطربة ، كقوله : « ثم جيء بالطعام ، إن في القصر طاهيا من حلب ، لقد سئمنا الأكل الأمريكي »[٢]، وقوله : « ما أفتن هذا النهار ! لقد طفنا بالجامعة ، ماذا أقول ؟ إنها مدينة قائمة بنفسها »[٣]، وبيّن مافي هذه الجمل من خلل في التنسيق ، وتفكك واضطراب .

وقد يفصّل في بعض المواضع تفصيلات لاحاجة لها[٤] ، أو يأتي بجملة معترضة طويلة – استطراداً – لدفع السآمة عن القارئ ، على طريقة الجاحظ[٥]، وبعض جمله الاعتراضية تكون كالشجا في الحلق ؛ لعدم إحسانه اختيار موضعها[٦].

ومما كلف به ، الاستطراد ، والخروج إلى ذكر أحداث لاتمت للرحلة إلا بسبب واهٍ[٧]، وربما تحدث عن بعض الأساطير المتعلقة بما يراه من آثار[٨] ، وقد يشجيه أمر ، فيفرد له جزءاً كبيرا ، كالحديث عن مصرع العربية في أمريكا ، ويعني بذلك نوبان العرب في المجتمع الأمريكي[٩] ، ولاشك في أنه ثقف هذا الأسلوب عن الجاحظ ، الذي يعد رأس مدرسة الاستطراد في الأدب العربي .

ومن المآخذ على رحلته ، الاهتمام بذكر بعض الدقائق ، التي لاتقدم ولاتؤخر ، كذكر بعض الأحاديث التي تجري بينه وبين بعض من قابلهم[١٠]، أو إثبات نص

---

(١) المصدر السابق ١٠٣ .
(٢) المصدر السابق ٤٩ .
(٣) أرض السحر ٣٢ .
(٤) انظر : المصدر السابق ٢٦٧ .
(٥) انظر : المصدر السابق ٢٨ .
(٦) انظر : أرض السحر ٣٠ .
(٧) انظر : المصدر السابق ٥٢ .
(٨) انظر المصدر السابق ١٧٦ و ١٧٨ .
(٩) انظر : أرض السحر ١٥٧ .
(١٠) انظر : المصدر السابق ١٠ و ١٣

رسالة كتبها له شاب يهودي ، وليس فيها شيء يستحق التقييد[١] .

ومما يحمد لجبري في كتابه هذا ، تأنّيه في إصدار الأحكام ، وعدم التعجّل فيها ، كقوله : « هذه أمور لا أستطيع بيان الرأي فيها ؛ لأنها تحتاج إلى تعمق في الدراسة »[٢].

أما نهاية الرحلة ، فقد اتبع فيها نهجين : ففي رحلته الأولى جعلها تقليدية ، يحكمها عامل الزمن ، ولم يكن موفقا فيها ، من حيث إشعار القارئ بانتهائها ، أما الرحلة الأخرى ، فجعل النهاية في فصل عنوانه ( خاتمة المطاف )[٣] ، وفيه حث بلده سورية على الأخذ بأسباب الحضارة ، والاستفادة من التراث الفكري بخاصة لأنه هو الأساس ، ومنه المنطلق .

هذا هو أدب الرحلة عند جبري ، فيه تميّزٌ من بعض الجوانب ، وبخاصة في الأسلوب واللغة ، وتقليدٌ واتباعٌ من جوانب أخرى كالبداية ، وسرد الوقائع .

وقد بالغ بعض الدارسين في الثناء على كتابه هذا ( أرض السحر ) مبالغة جاوزت القصد ، حين زعم أن « الكتاب كله جدير بالدرس ، خليق بالبحث »[٤] ، وأن فصل (خاتمة المطاف) « تضمن إشراقات نادرة المثال في أدبنا العربي »[٥].

وخير ماوصف به الكتاب أنه « عالم زاخر بالآراء ، غني بالأفكار ، مليء بالنظرات والمشاهدات ، مترع بالوصف الدقيق ، هائج مائج بالعاطفة الدافقة ، زافر بالحسرات والأنات ، ضاحك بالفكاهة »[٦].

---

(١) انظر : المصدر السابق ٩٨ .
(٢) أرض السحر ٢٥٣ .
(٣) انظر : المصدر السابق ٢٦٧ .
(٤) فصول في اللغة والأدب ١٤٦ .
(٥) المرجع السابق ١٣٨ .
(٦) المرجع السابق ١٤١ " بتصرف يسير " .

## ٣ - أسلوبـــه :

يُعرّف الأسلوب بأنه « طريقة الكتابة ، أو طريقة الإنشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ ، وتأليفها للتعبير بها عن المعاني ، قصد الإيضاح والتأثير »[١].

أي أن الأسلوب هو في حقيقته : « طريقة التعبير »[٢]، ولما كان هو « وسيلة التعبير عن المعاني بواسطة الألفاظ ، فلا يكون المعنى وحده ، ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مزيج من عناصر مختلفة هي :

الأفكار والصور والعواطف ، ثم الألفاظ المركبة والمحسّنات المتعددة »[٣].

ولاشك في أن الأسلوب ركن مهم من أركان الأدب نثره وشعره ، فهو الذي يميّز كاتبا عن آخر ، إذ إن لكل واحد من الكتّاب معجما يحوي الألفاظ التي يردّدها ، والجمل التي يكثر منها ، والتراكيب التي يؤثرها ، ويتضح من خلاله المؤثرات في تكوينه ، ونمط تفكيره .

من أجل ذلك كان الاهتمام به ضرورة ، من قبل المبدع ، كيما يعرض أدبه بأسلوب مقبول مرضيّ ، ومن قبل المتلقّي الذي يميل إلى لون من الأسلوب ، ويرغب عن آخر .

وعلى ذلك ، فإن للأسلوب دوراً في تحبيب الأدب للناس ، مع أن جبري نفسه يرى أن حالة القارئ النفسية هي التي تحبّب له نوعا من الأدب ، وحين تزول تلك الحالة أو العقدة التي يشعر بها ، فإنه يختلف نظره إلى ذلك الأدب[٤] ، وهذا كلام لاريب فيه ، ولكنّ اجتماع الأسلوب البديع مع الحالة الملائمة للمتلقي يزيد الأدب جمالا .

وكلام جبري ذلك لايفهم منه إهدار قيمة الأسلوب ، ولكنه ذهب فيه إلى أن الأسلوب - أحيانا - يتأخر مفسحاً المجال للحالة النفسية للمتلقي .

---

(١) الأسلوب ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ١٦١ .

(٤) انظر : مقدمته لكتاب ( رباعيات الخيام ) ص ٩ ، ترجمة نويل عبد الأحد ، منشورات مطبعة الحياة ، دمشق ١٩٥٨ م .

ولقد عرّف هو الأسلوب بأنه « الطابع الخاص الذي يطبع به الكاتب كتابته ، والشاعر شعره ، والقاص قصته ، الأسلوب هو القالب الذي يصب فيه كل واحد منا فكره وعاطفته »[١]، أو « هو المذهب الذي يذهبه كل واحد منا في التأليف بين ألفاظه ، فالأسلوب لايراد به اللفظ وحده ، وإنما يراد به التأليف بين الألفاظ »[٢].

ولقد كان جبري يهتم الاهتمام كله بالأسلوب ، ويرى أن الاهتمام بالمعنى وحده غير كاف[٣]، ومن أجل هذا كان يشتد في نقده للأساليب المتدنّية في المقالة والقصة وغيرهما[٤] ، بل كان يصرّح بأنه قلّما يلتفت إلى الموضوع ، وإنما كان همه الفن قبل كل شيء وروح الكاتب[٥].

ونظراً لإيمانه بهذا المبدأ ، كان يرى « ألاّ يكتب الكاتب إلا مايشعر به ؛ لأن كتابته حينئذ تصدر عن الطبع والروح »[٦]، فيرقى بذلك أسلوبه ، ويصفو فنه ، كما يرى أن من شروط كون المرء كاتبا سهولة لغته[٧] ، وفي نظره أنّ البلاغة كل البلاغة ، في السهولة والبساطة ، لافي التحذلق والتقعر[٨]، و « سهولة الكلام هي التي تخلد صاحبها »[٩].

وبعد : فتلك آراؤه في الأسلوب ، وتعريفه له ، فكيف كان أسلوبه هو ؟ وماسماته ؟ .

يقول جبري متحدثا عن أسلوبه : « إنه أسلوب مطبوع بطابع الوضوح والسهولة والبساطة ، مع المحافظة على روح اللغة وعبقريتها »[١٠]، ويحكم على نفسه بأنه انقاد إلى الطبع في كل كتاباته[١١].

---

(١) من مقالته ( الأسلوب ص ٢١٨ ، مجلة المجمع ج ٤ ، مج ١٠ .
(٢) من مقالته ( الأسلوب هو الرجل ) ص ٤٠٦ ، مجلة المجمع ج٣ ، مج ٤١ .
(٣) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢١٩ .
(٤) انظر مثلا : مقالته ( انحدار الأنواق ) ص ٩٥٩ ، مجلة الأزهر ، رمضان ١٣٧٩هـ .
(٥) انظر مقدمته لرواية ( الأزاهير الحمر ) ، لأميرة الحسني ، ص ١١ ، غير مؤرخة .
(٦) المرجع السابق ١٢ .
(٧) انظر : أنا والنثر ١٠٩ .
(٨) انظر مقدمته لكتاب ( أناتول فرانس ) ٧ .
(٩) دراسة الأغاني ٣١٤ .
(١٠) أنا والنثر ١٧٥ .
(١١) انظر : المصدر السابق ١٨٧ .

كما لخّص طريقته في الكتابة ، حين قال : « إني أعنى بالتفتيش عن اللفظ ، الذي يصور الفكر أصدق تصوير ، وعن الجملة التي تقع في أذني موقع نغم من أنغام الموسيقى ، وعن التركيب البسيط الذي خلا من كل تزويق فيه كلفة .. ماعدا التزويق الذي جاء ابن الطبع وحده »[١].

إذاً فهو يبحث عن جمال اللفظ ، ويعنى باختيار الجمل والتراكيب قبل كل شيء، وينفر طبعه من التكلف والتزويق إلا إن جاء عفوا ، وكان يجتهد في تنقيح مايكتب وتهذيبه ، تاركا نفسه على سجيتها ، غير أنه لم يكن ينقّح إلا بعد الفراغ من الموضوع بزمن ، وقليلا ماكان يعدّل من ألفاظه وجمله [٢].

ثم إنه صاحب أسلوب منطقي في أغلب مؤلفاته ، يظهر عليه حبه للتنسيق والتنظيم وترتيب الفِكَر . وقد أشار إلى ذلك وقال : إن أدبنا يفتقد الفكر الرياضي ، يقصد بذلك التسلسل المنطقي ، أو وحدة الموضوع[٣]، يقول عن نفسه : « إني مولع بالتحليل ...مولع بتقسيم الفكرة أقساما، وبتوضيح كل قسم على حدة »[٤]، « كنت أتقيد بالفكر الرياضي كل التقيد ، وأعني بذلك أني كنت أحرص على وحدة الموضوع »[٥].

ولقد استفاد هذه السهولة في الأسلوب ، من عدة مصادر :

<u>الأول</u> : فكرة التحرر الأدبي التي عمت الكتاب ، فأثروا النثر المرسل ، البعيد عن التكلف ، وإن بقيت بعض آثار القديم عن بعضهم [٦].

<u>الثاني</u> : تمرسه بالكتابة في الصحافة ، التي تجعل كتابها يجنحون إلى السهولة ، ويميلون إلى الرقة [٧].

<u>الثالث</u> : قراءته في الأدب الغربي بعامة ، والفرنسي بخاصة [٨].

---

(١) المصدر السابق ٢٤ و ٢٥ .
(٢) انظر : أنا والنثر ١٧٤ .
(٣) انظر : المصدر السابق ١١٦ .
(٤) أنا والنثر ٨٢ .
(٥) المصدر السابق ١١٦ .
(٦) انظر : البارودي رائد الشعر الحديث ١٦٦ ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط الرابعة ١٩٨١م .
(٧) انظر : صناع الأدب ١٤٦ .
(٨) أنا والنثر ٢٥ و ١٤٥ .

**والمصدر الرابع** : قراءته الواسعة في كتب التراث التي تنحو منحى الترسّل والسهولة ، والبعد عن التكلف ، مثل كتب الجاحظ والأصبهاني .

- **السمات العامة لأسلوبه :**

لكل كاتب نمط من الكلام يتميز به ، وطابع خاص في تفكيره وتعبيره وتصويره ، ولذلك قيل إن الأسلوب هو الأديب[١] ، أي أن اختلاف نفس الكاتب واتسامها بسمات خاصة ، ينطبع على ماينتجه من أدب ، ومن أجل ذلك كانت دراسة الأسلوب ضربا من تمييز الكتاب بعضهم عن بعض ؛ لأنه لايتفق كاتبان فيه حذو القذة بالقذة ، ويمكن إجمال سمات أسلوب جبري على النحو التالي :

١ - **التأثر بأساليب القدماء :**

يقول جبري : « كنت أدوّن في دفتر خاص ما أمرّ به من جمل أستحسنها ، أو من تراكيب أستطرفها ، فكنت بعد ذلك أستعمل في كتاباتي ماكنت دوّنته »[٢]، فلا عجب إذاً أن يجد القارئ عنده جملا منقولة ، يصبّها في قوالب محفوظة ، مثل الجمل والتعبيرات التالية :

- « يأخذ بعضها برقاب بعض »[٣].
- « اشرأب النفاق بالمدينة »[٤].
- « هل غادر الجاحظ من متردم »[٥].
- « بعد أن همعت شآبيب الثورة الفرنسية ولمعت عوارضها »[٦].
- « افتتح علينا أبواب المظالم ، واحتلب فينا ضرعي الدنانير والدراهم .... وحتى أخّر البلاد ، بل أخرب العباد ، وحتى شوّق إلى الآخرة أهل الدنيا »[٧] ، وقد شعر جبري بأن هذه الجمل الأخيرة منقولة نقلا من التراث ، فقال : « إني لأشعر بأن

---

(١) انظر : الأسلوب ١٢١ .
(٢) المصدر السابق ١٨ .
(٣) انظرها مثلا في : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٢٧ .
(٤) العناصر النفسية في سياسة العرب ١٦ .
(٥) بين البحر والصحراء ٥٦ .
(٦) شيء عن أناتول فرانس ، مجلة المجمع ، ص ١٥٥ ، ج ٤ ، مج ٧ .
(٧) أنا والنثر ١٠٥ .

هذا الكلام ليس من نمط كلامي ... وأظن أني استعرته ... وكأنه من كلام القرن الرابع ، وعليه روح الخوارزمي أو البديع »[١].

وأقرّ في موضع آخر ، بأنه لم ينج - في بعض مقالاته - من تأثير بلغاء الكتاب ، فنقل عنهم عدة تعبيرات ، مثل : مزقتها كل ممزق - تستنقذها من المكروه - جيئته وذهوبه[٢]. ومثلها أيضاً « فصلّوا لي بردا ضافي الحواشي ، سابغ الأذيال[٣].

وعندي أن نقل تعبيرات القدماء لايضير الكاتب في شيء ، مابقي محتفظا بشخصيته الأدبية ، متميّزا بأسلوبه ، بل إن استخدام تعبيراتهم وتراكيبهم مما يضفي على الكتابة روحا عذبة ، ويسبغ عليها جزالة وجلالا ، وبخاصة في هذا العصر الذي طغت فيه أساليب صحفية ركيكة ، لاتساوي في ميزان الأدب والفن شيئا .

٢ - <u>البديـــع</u> :

وهذه السمة متصلة بالتي قبلها ، وهي التأثر بالقدماء ، ولكنها تختلف عنها ، من جهة أنها ظهرت عنده جلية في كتاباته الأولى ، ثم قلّت حتى كادت تختفي ، وصار ينفر من أنواع البديع - حين يُفرط الكاتب فيها - ويرى أنها تخرج بالكلام عن الطبع إلى التصنّع [٤].

بل إنه ذهب إلى أن من فضائل الشدياق وأمثاله تزهيدهم الكتّاب في السجع[٥].

ومن الجمل التي جاءت عنده مصطبغة بصبغة بديعية ، ماجاء في حديثه عن مقامات الحريري [٦] ، حيث تجد فيه عدة جمل مسجوعة سجعا فيه شيء من التكلف [٧].

---

(١) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٢) انظر : أنا والنثر ٥٠ .
(٣) من خطاب الشكر لأعضاء المجمع لما اختير عضوا فيه ، مجلة المجمع ، ج ١٢ ، مج ٦ .
(٤) انظر : أنا والنثر ١٢ و ٢٠ .
(٥) انظر : أحمد فارس الشدياق ١٠٥ .
(٦) الحريري ( ٤٤٦ - ٥١٦ هـ ) الأديب الكبير ، صاحب المقامات ، ومن كتبه درة الغواص ، وملحة الإعراب ، كان دميم الصورة غزير العلم . ( الأعلام ٥/١٧٧ ) .
(٧) انظر : بين البحر والصحراء ٦١ .

ومن كلامه الذي جمع سجعا وجناسا ، قوله : « فالوطن هو عش المرء الذي فيه درج ، ومنه خرج ، حضنته أحشاؤه ، وأظلته أفياؤه ، وغذاه هواؤه وماؤه ، وتربة الصبا كما قيل تغرس في القلب حرمة وحلاوة ،كما تغرس الولادة فيه رقة وحفاوة »[١].

وتأمل الجملة التالية ، تجد أنها مغموسة غمسا في أساليب الأقدمين ، ففيها استعارات محفوظة ، زيادة على السجع ، وهي قوله : « لم يحوكوا الكلام على حسب الأماني ، ولاخاطوا الألفاظ على قدود المعاني »[٢].

واستمع إلى قوله يصف إحدى مدن أمريكا ، في جمل حشاها بالطباق حشوا : « إنها مدينة جبارة ، فهي نظيفة قذرة ، موحشة مؤنسة ، عظيمة صغيرة ، هادئة صاخبة ، ساكنة متحركة »[٣]، ولكنّ هذه الألفاظ المتطابقة ليست متكلفة ، بل إنها جلَت المعنى الذي يريده جلاءً تاماً .

٣- <u>تقطيع الجمل</u> :

يرى جبري أن أسلوب تقطيع الجمل ، يمهد للقارئ ، ويعطي الكلام نصيبه من الراحة[٤]، كما أنه يرى فيه « شيئا من الخفة والسرعة ، لانراه في العبارة المديدة التي يضم بعضها إلى بعض »[٥] ، وتعد هذه السمةُ من أظهر السمات في كتابته ، وانظر في جمله التالية :

- « أعطته صورا هامدة فأحياها ، وأرواحاً جامدة فحركها ، وألوانا كامدة فصفّاها »[٦].
- ومما قاله عن الزركلي : « خلقه الله شاعرا من أول حياته ، ففي قامته المديدة ، وفي عينيه الناطقتين ، وفي عذوبة حديثه إذا حدث ، وفي شدة غضبه إذا

---

(١) من مقالة ( الحنين إلى الأوطان ) ص ٢٦٣ ، مجلة المجمع ، ج ٩ ، مج ١ .
(٢) من مقالة ( الأسلوب ) ص ٢٢٢ ، مجلة المجمع ، ج٤ ، مج ١٠ .
(٣) أرض السحر ٢٠٣ .
(٤) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٥٨ .
(٥) دراسة الأغاني ٣٢١ .
(٦) من مقالته عن رواية ( سيد قريش ) ص ١٢٦ ، مجلة المجمع ، ج٢ ، مج ١٠ .

غضب ، وفي حلاوة رضاه إذا رضي ، وفي لطائف نكته إذا مزح »[١].

- ومثله : « فإني أرجع إلى أحلام ذهبت ، وإلى صبا اضمحل ، وإلى شباب نوى »[٢].
- وكذلك : « فيقبح أفعالهم ، ويذم آراءهم ، ويسفّه أحلامهم »[٣].
- وأيضا : « صوّر رجالا خلقوا تاريخا ، وأدبا أنشأ أمة ، وفكرا غرس حرية »[٤].
- وكذلك قوله :« فإني إذا أحببت الأدب أحببت كل الذين يحنون عليه ، وإذا نزعت إلى صونه نزعت إلى كل الذين يصونونه »[٥].

ولاشك في أنّ هذا التقطيع للجمل ، يساعد في إثراء الناحية الموسيقية في الكلام ، فتزيده تماسكا ، وتمنحه وضوحا ، وتعين القارئ على التلذذ بقراءته .

ويتصل بتقطيع الجمل سمة أخرى ، هي :

٤ - <u>كثرة العطف والترسل</u> :

وهي سمة واضحة جدا ، وكثيرة ، ومن نماذجها مايلي :

- « والبحتري قد أنس بكل منظر من مناظر الطبيعة ... وتملت أذنه قسمها من <u>هديل حمامها ، وحفيف ورقها ، وضجيج بحرها ، وقصف رعدها</u> ، وأخذ أنفه نصيبه من <u>نرجسها ووردها وآسها وزعفرانها وأقحوانها</u> ، وملأ شعره من ذهب <u>شمسها ، وفضة مائها ، وركام ثلجها ، واندفاق غيثها</u> »[٦].
- وقال عن الزركلي : « <u>اجتمعت له أصالة الشعر ، ومحاسن النوق ، وحلاوة الصور ، وسهولة الألفاظ</u> ... لقد تجلت هذه الفضائل ... في قصائده ... التي فاضت <u>محبة</u> لديار ه ، <u>وشغفا</u> بوطنه ، <u>وثورة</u> على المعتدين عليه ، <u>وتحريضا</u> على إخراجهم من ديارنا »[٧].

---

(١) من مقدمة ديوان الزركلي ١٧ .
(٢) أنا والنثر ١٢ .
(٣) العناصر النفسية في سياسة العرب ١١ .
(٤) من مقدمته لكتاب ( الأدب العربي المعاصر في سورية ) ص ٧ .
(٥) من مقدمته لكتاب ( أناتول فرانس ) ٥ .
(٦) من مقالته ( في محراب الطبيعة ) ص ١٥٢٨ ، مجلة الكتاب . ج ١٠ ، مج ٤ ، ذو القعدة ١٣٦٦هـ .
(٧) مقدمة ديوان الزركلي ١٧ .

- ومثله : « كان سيدنا محمد يحب جباله المظلمة ، وقفاره الصاهرة ، وسماءه العابسة ، وسواء عليه أرفّت الطبيعة تحت سماء مكة أم كمدت ، وسواء عليه أنضرّت جبالها بالشجر أم جرّدت تجريدا ... إنه أحب كآبتها وظلمتها ، وكمدتها ، وأذن في الناس بالحج ، فأتوها رجالا وعلى كل ضامر من كل فجّ عميق »[1].

وهذا وصف ترسّل فيه جبري ، وأطلق فيه لقلمه العنان ، فأسهب في الوصف ، وأمتع قارئه به ، ومثله في حسن الوصف ، والاسترسال الذي لاتكلف فيه ، قوله في وصف مكة :

« أرض هذا الوطن ، لم تضحك سماؤها ، ولا اخضلّ شجرها ، ولارفّت تعاشيبها ، ولاماجت أنهارها ، وإنما نشأ - يعني محمدا صلى الله عليه وسلم - في صفاح جبال سود ، تدخل الكآبة على القلوب ، تحت سماء كامدة اللون ، بين صحارى صاهرة الشمس ، لاتأنس فيها العين بخضرة ربيع ، أو صفرة خريف ، ولاتنعم فيها الأذن بنوح عندليب ، أو بحفيف ورق ، أو بخرير ماء »[2].

على أني أرى أن كثرة المتعاطفات ، قد تكون عيًا ، تُحوج إليها قلة المعنى ، ونضوب الذهن ، ولستُ أشك في إيحائها الموسيقي ، وتكثيفها للمعنى ، شريطة ألا تتجاوز القصد ، وأن توضع في مكانها الملائم .

٥ - <u>اللغة الشعرية</u> :

وأعني بها ضروب البيان ، من تشبيه واستعارة ، ومجاز ، حيث كان يبث في كلامه كثيرا منها ، مستعينا بها على إيضاح فكرة أو إثبات رأي .

استمع إليه يصف قدوم الشتاء ، وصفا فيه كثير من الخيال البديع : « وفي صبح من أصباح تشرين الثاني ، تهب ريح شديدة ، فتجرد هذا الخريف من قناعه المذهب ، فيلوح من وراء هذا القناع هيكل الشتاء النحيل ، فالأوراق التي كنا نعتقد

---

(١) دراسة الأغاني ٢٦٨ .
(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أنها لاتزال مخضرّة قد ماتت ، ولم تبق متشبثة بأغصانها ، إلا بفضل ألياف دقيقة جداً »[١].

وشبيه بهذا المقطع قوله واصفا بعض مظاهر الطبيعة في أمريكا : « الجو مثقل بالغيوم السود ، والهواء مع ذلك جاف ، فإننا في فضاء أجرد ، الجبال ... ذاهبة في السماء ، راعبة بسوادها ، وعلى رؤوسها قطع من الثلج ، كأنها النمور في لونها الأبيض ، ولون الجبال الأسود »[٢] ، ومثله قوله : « تقلّبتُ في الجبال والتلال ثلاث ساعات ، بين خريف أصفر ، يتناثر فيه الورق على الأرض بعد أن فارق الحياة ، وربيع أخضر يتعصّى على الموت فلا يريد أن يموت »[٣].

ولاريب في أن هذا الأسلوب البياني ، يساعد على إيصال المعنى ، وينقل القارئ إلى تلك الطبيعة الموصوفة ، فكأنه يراها رأي العين .

ومما يتصل بذلك كثرة التشبيهات عنده ، وبعضها قديم مستفاد من التراث ، كقوله في وصف فتاة : « كأنها تفاحة تنوب في الرقة »[٤]، وقوله في وصف الشعر الجيد : « كأنه بناء مبني لاخلل فيه »[٥] ، وبعضها مبتكر جديد ، مثل قوله يصف فتيات راقصات : « كأنهن طواويس بريشهن المنفوش »[٦]. وقوله : « ثم يمر القطار على واد ، فيلفه حتى يكون القطار في أوله وآخره على شكل حافر الفرس »[٧] ، وكذلك قوله : « وكأن كل مدينة من مدنه وشي منقوش على ثوب الوطن »[٨].

وقد يشبه تشبيهات عصرية ، كقوله : « فكأنه أستاذ في كلية علوم يصف.. »[٩] ، وقوله يصف تلك التشبيهات القديمة ، التي مافتئ بعض الكتاب

---

(١) من مقال ( فن الشيخوخة ) ص ٧ ، مجلة الثقافة .
(٢) أرض السحر ١٨٤ .
(٣) المصدر السابق ١٢٧ .
(٤) المصدر السابق ٥١ .
(٥) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٥٢ .
(٦) أرض السحر ١٨٥ .
(٧) المصدر السابق ٩٩ .
(٨) بين البحر والصحراء ٨٧ .
(٩) أحمد فارس الشدياق ٢١١ .

يرددونها : « ومثلها في ذلك كمثل الأوراق المالية التي كثر تداول الأيدي لها حتى تهرّأت »[١] ، وهذا تشبيه دقيق جدا .

وأنت راءٍ أن تشبيهاته في الغالب جديدة غير متكلفة ، تساعد على بيان المعاني، من غير حشو ، ولا إثقال للجمل .

ولايترك جبري لغته الشعرية ، حتى في بعض مقالاته النقدية ، كقوله مقرّظا أحد الكتب : « هجم فيه الكاتب على خضم من المذاهب بشيء من الجرأة ، فبقي في أكثر هجماته على الساحل خوفا من الغرق »[٢].

ومثله قوله عن الجاحظ : « لقد سكر كل حياته بألوان الأدب ، وبرنات ألفاظه ، وثمل كل عمره من لذة العلم »[٣]، وتأمل جمال التعبير وسموّه ، ودقته في الدلالة على المراد ، في قوله يصف أحد كتب التراجم : « كأن هذا التاريخ قد انتفض من مكمنه ، ورمى إلينا برجال يعيشون بين ظهرانينا ، نجالسهم ويجالسوننا »[٤]، وانظر إلى قوله في موضع آخر : « وإذا عجبنا من شيء فإنما نعجب من هذه الروح الطويلة ، التي أعانت الشدياق على تتبع أمثال هذه الأمور »[٥] واللطف والجمال في هذه الجملة متجمع في قوله ( الروح الطويلة ) فإن وصف الروح بالطول بديع ، ودالّ على المراد .

ومن أمثلة لغته الشعرية ، التي تضمنت استعارات جيدة قوله في وصف أسلوب الجاحظ ولغته : « فهو آخذ بمخنّق اللغة »[٦]... « فلسنا نعرف كاتبا لعب باللغة مقدار لعب الجاحظ »[٧].. « إن اللغة ألقت إلى الجاحظ طاعتها »[٨].

وربما تراسلت الحواس عنده ، فتأتي الجمل نابضة بالحياة ، مشرقة المعاني ، كقوله : « فكأنما الأسماع قد مجّت مانردّد سنين طويلة ، وكأنما القلوب قد لفظت مانمضغ »[٩].

---

(١) المصدر السابق ٢١٥ .
(٢) من تقريظه لكتاب ( في دولة الأدب والبيان ) لعمر أبو النصر ، ص ١٢٢، مجلة المجمع ج ١-٢، مج١٢ .
(٣) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٤٨ .
(٤) من مقدمته لكتاب ( الأدب العربي المعاصر في سورية ) ٧ .
(٥) أحمد فارس الشدياق ١٥٢ .
(٦) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٦٠ .
(٧) المصدر السابق ٢٦١ .
(٨) المصدر السابق ٢٦٢ .
(٩) الجاحظ معلم العقل والأدب ٣ .

وكثيرا مايعرض جبري الفكرة ، ثم يمثّل لها بمثال حي ، مما يراه حوله في الطبيعة ، كقوله : « إذا شاء أحدنا أن يقطع مرحلة دفعة واحدة ، ووجد أن هذه المرحلة طويلة ، لزمه أن يجزّئها أجزاءً ... من دون أن ينظر إلى الجزء الثاني قبل قطع الجزء الأول ، ومامثلنا في ذلك إلا كمثل الجبلي الذي يجرف الجليد في الجبال ، فإنه لاينظر إلى رأس الجبل ، لأن التصعيد فيه يرعبه ، ولاينظر إلى سفحه ، لأن الانحدار إليه يرهبه »[١].

ويقرب منه قوله : « تنشأ عن بقية شباب عاصف شيخوخة فاتنة ، فإن حياة الزوجين تشبه هذه الأنهار التي تكون عند منبعها بمنزلة التيارات الهادرة ، ولكنها عند المصب تصبح سواقي هادئة صافية »[٢].

٦ - <u>العنايـة باللغـة</u> :

لم يكُلفْ جبري بشيء كَلَفَه باللغة ، فقد كانت له معها جولات ، إذ استأثرت باهتمامه ، وكتب فيها مقالات كثيرة ، واهتم بتتبع فصيح العامة[٣]، فانطبع أسلوبه بها ، وصارت عنايته باللفظ ، وحرصه على روح اللغة ، من أظهر خصائص أسلوبه[٤].

وقد كان يرى للألفاظ شأنا كبيرا في النثر والشعر ، فكان لذلك يحرص كل الحرص على تنقيحها ، لتوقف كثير من البلاغة عليها ، كما يقول[٥] ، « فهمّه ولذّته اللغة والألفاظ قبل كل شيء ، ثم التصوير بعد هذا الهم وهذه اللذة »[٦].

وحين تقرأ في كتبه تروقك ألفاظ كثيرة ، اختارها جبري وانتقاها انتقاء الناقد البصير ، وفي بعضها غرابة ، ولكنها مستملحة وغير غامضة .

---

(١) من مقال ( فن العمل ) في مجلة الثقافة المصرية ، ص ١٠ ، من العدد ٤٧ ، السنة الأولى ، ١٠ شوال ١٣٥٨هـ .
(٢) من مقال ( فن الشيخوخة ) ص ٩ ، مجلة الثقافة .
(٣) راجع فن المقالة في هذا الفصل من البحث .
(٤) انظر : أنا والنثر ١٨٨ .
(٥) انظر : المصدر السابق ١٧٥ .
(٦) انظر : المصدر السابق ٤١ " بتصرف " .

وتأمل هذه الطائفة من الألفاظ ، التي ترددت عنده : إضجاج - أحفّة ( جمع حافة ) - شميم ( مصدر شمّ ) - جبرياء ( بمعنى جبروت ) - يكركرها ( بمعنى يكرّرها ) - راعبة - أهاضيب - عجيل ( بمعنى مستعجل ) ، رسوم بائخة ( أي مندثرة ) - نحوم عليه ونلوب ( أي ندور ) - انبعق ( انتثر فجأة ) - نُدحة ، وكلها فصيح ، وأغلبها واضح في سياق الكلام .

ولكي يتضح ميله إلى حسن الصياغة ، وانتقاء الألفاظ الجزلة ، والعناية باللغة ، أورد هذه الجملة القصيرة وهي قوله : « لا أذكر أني قرأت دُفقةً خمسين صفحة من كتاب دون أن يواثبني اليسير من التعب أو الضجر »[١] ، وهي صياغة أدبية بارعة ، لاتخلو من وثبات من الخيال المحلّق .

وقد ساقه اهتمامه باللغة ، وحرصه على الفصاحة ، إلى أن يقترح ألفاظا عربية فصيحة ، لتوضع محل ألفاظ شائعة أقل منها فصاحة ، واستخدمها في كلامه ، مثل كلمة ( دخيلة ) في قوله : « يجب على المؤرخ الأدبي أن ينسلخ من دخيلته »[٢] وقد شرحها بقوله : « دخيلة الرجل مذهبه وجميع أمره ، وقد استعملتها بدلا من الشخصية »[٣].

ويتفرّع عن اهتمامه باللغة ، سمة أخرى داخلة في السمة السابقة ، وهي :

٧ - <u>العناية بحروف التعدية</u> :

التعدّي هو تجاوز الفعل فاعله إلى مفعول يحتاج إليه ويكمّله ، ومن طرق تحقق التعدية حرف الجر ، نحو ذهبت بزيد أي أذهبته[٤] ، ولقد كلف جبري بتعدية الأفعال بالأحرف ؛ لأنه رآها سراً من أسرار جمال الأسلوب .

---

(١) من عرضه لـ " غادة الكاميليا " ص ٣٧٨ ، مجلة المجمع ، ج ٦ ، مج ١٠ ، وفي اللسان : ( جاؤوا دفقة واحدة أي دفعة واحدة ) .

(٢) مقال ( نقد المؤرخات الأدبية ) ١٦٤ ، مجلة المجمع ، ج٣ ، مج ١٠ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) معجم المصطلحات النحوية والصرفية ١٤٦ ، د . محمد سمير نجيب اللبدي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ، بتصرف .

يقول معلّقاً على نص أعجبه لابن خلدون : « كنت أعنى بحرف التعدية فيه »[١] ، ويقول في موضع آخر : « وكنت أعنى العناية كلها بحروف التعدية ... وتقيدت بهذه الحروف في أكثر كتاباتي ... فما أذكر أني كنت أستعمل فعلا دون التفتيش عن حرف تعديته »[٢].

وهذا الاهتمام بحروف التعدية ، مظهر آخر من مظاهر الولع باللغة ، وتطلّب الجزالة ، وإنك لتحس بعذوبة هذه الأفعال المتعدية بالأحرف ، وبخاصة إن كانت مما هجره الكتاب ، وتأمل ملاحة أحرف التعدية في الأمثلة التالية من كلام جبري :

- « إنك تجد دمشق في ربيعها الطلق تهش بك »[٣].
- « وقد طمحت الهمة به إلى طبع هذا الديوان »[٤].
- « هذا ماحمله على الانزعاج عن سيف الدولة »[٥].

على أن حرصه على تصيّد أحرف التعدية ، أوقعه من حيث لايشعر في الخطأ ، فجرت على لسانه أفعال متعدية بنفسها ، فعدّاها بالحرف ، ويظهر أنه تأثر بالعامية التي تكثر فيها مثل هذه الأساليب ، وذلك في قوله :

- « قال الذين أطبقوا له عينيه »[٦] ، وقوله :
- « قد تسرق له المال »[٧]. وقوله : « يفهّمونه عليه في بعض الأديار »[٨].

ومن سمات أسلوبه أيضا ، الميل إلى :

٨ - <u>استخدام الجمل الشعبية</u> :

ويظهر أنه يضمنّها في أدبه ، رغبة منه في اكتساب عدد كبير من القرّاء ، وحتى يدنو بأدبه من العامة ، ومن أمثلة هذه الجمل ، قوله - لما وعده أحدهم على

---

(١) أنا والنثر ١٩ .

(٢) المصدر السابق ١٨ .

(٣) من مقالة عن رواية ( سيد قريش ) ١٢٦ ، مجلة المجمع ، ج٢ ، مج ١٠ .

(٤) من مقالة بعنوان ( مطبوعات حديثة ، قيس بن الخطيم ) ٢٤٨ ، مجلة المجمع ، ج١ ، مج ١ ، بتصرف يسير ، وراجع هذه الفعلين في ( معجم الأفعال المتعدية بحرف ، لموسى الأحمدي ٢١٩ و ٤١١ ) .

(٥) حياة المتنبي ٤٤٩ ، مجلة المجمع ، ج٨ ، مج ١٠ ، وزعجته عنه فانزعج : أي أقلقته حتى خرج ( معجم الأفعال المتعدية بحرف ، ١٤٩ ، ولسان العرب مادة " زعج " ) .

(٦) أنا والنثر ٥٥ .

(٧) بين البحر والصحراء ٥٠ .

(٨) أحمد فارس الشدياق ٨١ .

الغداء ، ثم لم يره - : « هذا وجه الضيف[١] كما نقول في دمشق »[٢]، وقوله - لما دعته امرأة للغداء ثم اعتذرت لعارض - : « فاستغربت هذا الأمر ، وقطعت لها ورقة[٣] كما نقول في عاميتنا »[٤] ، ومنها أيضا قوله : « كنت أدخل محلا صاحبه من أهل الصين ، فيستقبلني بوجه يقطع الرزق[٥] »[٦].

كما عمد جبري إلى استخدام بعض ألفاظ العوام ، تظرّفاً حينا ، كقوله إن أحد أصدقائه رأى خطّا لم يعجبه ، فقال : « هذا ماكنا نسميه في صغرنا خرابيش الجّاج »[٧] ، أو اضطرارا حينا ، كاستخدام كلمة ( سِيْران )[٨]، التي تمنى أن يجد مايقابلها في الفصحى[٩] .

وقريب من هذه السمة كل القرب سمة أخرى هي :

٩ - <u>إحياء فصيح العامي</u> :

فقد كان يعمد إلى اللفظ العامي المألوف ، فيستعمله لأنه فصيح[١٠] ، فتجده يقول مثلا : « والسيارات محشوكة[١١] في جميع الطرق »[١٢]، أو « فظهر عليها أثر التلبّك »[١٣]، أو « راسخة لاتتلحلح »[١٤]، إلى غير ذلك من الكلمات ، ومنها :

---

(١) كناية عمّن يذهب ولايعود .
(٢) أرض السحر ٢٢٨ .
(٣) كناية عن انتهاء العلاقة بينهما .
(٤) أرض السحر ٢٢٨ .
(٥) كناية عن مظاهر العبوس في وجهه ( الحكم والأمثال الشعبية في الديار الشامية ، ص ٣٢٠ ، محمد سعيد مبيض ، دار الثقافة ، الدوحة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ) .
(٦) أرض السحر ٢٢٩ .
(٧) المصدر السابق ٢٥٧ ، وخرابيش الجّاج أي : عبث الدجاج .
(٨) بمعنى النزهة خارج البلد للأكل والشرب واللهو ( أرض السحر ٢٦٠ ) .
(٩) انظر : أرض السحر ٢٦٠ .
(١٠) انظر : فصول في اللغة والأدب ١٣٧ .
(١١) أي مجموعة ( اللسان ) .
(١٢) أرض السحر ١٤٥ .
(١٣) المصدر السابق ٣١ ، والتلبّك : الاختلاط في الرأي ( اللسان ) .
(١٤) أرض السحر ١٤٩ ، والتلحلح : هو التزحزح ( اللسان ) .

الفشفشة[١] ، والتخبيص[٢] ، والتنكيت والنكتة[٣] ، والشُبّاك ، وربما أعاد الكلمة الواحدة مرارا ، مثل كلمة : تبجبح [٤]، والمطمطة [٥].

ويظهر أنه يقصد بذلك إحياء هذه الألفاظ ، وإعادتها إلى فصاحتها ، وهو بذلك يقرّب الفصحى من العامة ، ويساعد على نشرها بينهم ، وفي نظري أن هذا مذهب جيد ومُجْدٍ ، ولا أدل على جدواه من أننا لانشعر بغرابة هذه الألفاظ حينما نجعلها في سياق فصيح .

وعلى رغم حرص جبري على فصاحة لغته ، وصحة ألفاظه ، أجد عنده بعض الكلمات الأجنبية ، التي تسرّبت إليه ، وبخاصة في كتاب ( أرض السحر ) ويبدو لي أنه استخدمها ؛ بسبب عدم معرفة البدائل الفصاح لها ، ولكنّ هذا لايعفيه من التبعة، فمنها : الفوتبول ، والتنس ، والبزبول ، والسمنت[٦] .

١٠ - <u>السخريـــة</u> :

حيث يذهب إلى أن بث السخرية والتهكم في الكلام مما « ينشئ لنا لذة تروّض قوانا العقلية »[٧]، وقد يبدي إعجابه بقصة أو كتاب ، لما يراه فيهما من تهكم[٨]، فهو إذاً من محبي هذا النهج أولاً ، ومن مؤيديه ثانيا ، فهل كان من روّاده ثالثا ؟ !

---

(١) وردت هـذه الكلمة فـي : العناصر النفسية في سياسة العرب ، انظر ص ٧ ، وتعني ضعف الرأي ( اللسان ) .

(٢) وردت فـي مقالتـه ( أطـوار النقد ) ص ١٧٢، مجلـــة المجمع ، ج٣ ، مج ١٠، وتعنـي : الخلـط (اللسان) .

(٣) وردت الكلمتان في : أحمد فارس الشدياق ، انظر ص ٤٦ ، ومعنى النكتة : الفكرة اللطيفة المؤثرة في النفس ( المعجم الوسيط ) .

(٤) انظر هذه الكلمة مثلا في : العناصر النفسية في سياسة العرب ١٧ ، وراجعها في الحكم والأمثال الشعبية في الديار الشامية ٨٠ ، وتعني التوسع ( اللسان ) .

(٥) انظرها مثلا في : عرضه لقصة ( فاوست ) ٣٢٠ ، مجلة المجمع ، ج ٥ ، مج ١٠ ، وتعني مد الكلام وتطويله ( اللسان ) .

(٦) انظر هذه الكلمات على الترتيب في : أرض السحر الصفحات ٦٩ و ١٤٤ و ١٣١ .

(٧) الجاحظ معلم العقل والأدب ١٩١ .

(٨) انظر : عرضه لقصة ( فاوست ) ص ٣١٩ ، مجلة المجمع ، ج٥ ، مج ١٠ .

الحق أنه لم يكن ذا باع طويل في أسلوب التهكم والسخرية ، فلم ينتهجه إلا في مقالات قليلة ، وذلك عائد في نظري إلى ماجُبل عليه من الجد والتوقّر ، ولذا فإن مانجده عنده من أساليب السخرية ، لايخوّله لأن يعد من الكتاب الساخرين .

ومع قلة نماذج هذا النهج ، فهي قوية الإيحاء ، شديدة الوقع والوطأة على المسخور منهم ، كقوله في صفة رجل لقيه في أمريكا : « نحيف البنية ، قوي المعدة »[١] ، وقوله في آخر : « دعوت الله في السر والعلانية ، أن ينجيك من كل نهشة ومن كل لسعة ، ولكني تذكرت بعد هذا مناعة جسمك ، فلم أخف أن تقتلك الأفاعي والعقارب ، وإنما خفت أن تموت هذه المساكين إذا هي نهشتك »[٢].

وقد يصف وصفا ساخرا ، كقوله عن صورة للشدياق : « أرى طربوشا حميديا منحدرا إلى الأذنين ، كأنه يقطينة على رأس صاحبه ، وعينين كأنهما جوزتان خضراوان ناضرتان ، تشيع السخرية فيهما ، وأرى لحية قد بعثرت شعراتها على الخدين ، ومن تحتها عقدة ملتفة إلى الصدر يحسبها الإنسان لأول وهلة ضفدعا على منضدة التشريح »[٣].

وهنا عمد - كما هو ظاهر - إلى الصور الحسية المادية ، فلان أسلوبه ، وله نص شبيه به في وصف إحدى النساء[٤] ، أضرب عن إيراده صفحا ، لما فيه من تهافت وإسفاف .

ومن سخرياته التي وفّق فيها ، ماجاء في قصة الرجلين اللذَيْن طعنا في القرآن الكريم واللغة العربية ، فناقشهما جبري نقاشا حادا ، ثم قال في النهاية : « ونغّصا علينا صفاء الليلة ، وذهبا بعد أن قام كل منهما بالواجب في التكدير والتنغيص »[٥].

---

(١) أرض السحر ٣٥ .
(٢) أنا والنثر ١٨٥ .
(٣) أحمد فارس الشدياق ٤٢ .
(٤) انظر : أنا والنثر ١٨٣ .
(٥) أرض السحر ١٢١ .

١١- الإستطراد :

يظهر لي أن قراءة جبري الفاحصة المتمعنة في كتب الجاحظ ، وتمرسه بأسلوبه ، جعلته يكتسب بعض سماته ، ومنها الاستطراد ، ومن العجيب أن تكون أكثر استطرادات جبري في كتابه عن الجاحظ !

ومعلوم أن الاستطراد خروج عن المنهج ، ولذلك يعد عيبا عند جمهرة المؤلفين في هذا العصر ، ولكن جبري لم يكن يهمه أن يسير على منهج معيّن ، بل إن منهجه هو الانطلاق مع خواطره دون خطة مرسومة .

وكثير من استطراداته تلك لاتمتّ إلى الموضوع الرئيس إلا بسبب ضعيف ، مثل حديثه عن موقف المسلمين من اليهود والنصارى ، وبغضهم للأولين ، وحبهم للآخرين ، حيث أطال فيه إطالة فاحشة[١] .

ومثل حديثه عن قدم اللغة العربية ، وكونها لم تنشأ دفعة واحدة في العصر الجاهلي ، ودعوته إلى دراسة اللغات السامية ولغات الأمم التي خالطها العرب ، وكل ذلك بعيد عن موضوع كتابه [٢].

غير أن بعض استطراداته تكون لصيقة بالموضوع الأصل ، وهنا يكون الاستطراد أخف وطأة ، وأقرب إلى الروح العلمية ، ومثال ذلك : أنه لما تعرض للحديث عن الشورى بعد عمر ، خرج إلى ذكر الحياة النيابية في عصرنا ومايدور في فلكها [٣].

١٢- الإطالة في النقل والإكثار منه :

يلجأ جبري إلى الإطالة في النقل ، حتى يستحوذ على صفحة كاملة أو صفْحتين ، ولاتجد له في أثنائها سوى تعليقٍ لاتقيم ولاتقعد[٤] ، وكثرة النقل وطوله يذهب بشخصية المؤلف ، ويضعف أثرها في القارئ ، ويجعله بمثابة ناسخ ليس غير .

---

(١) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٨٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق ٢١٦ ، وانظر نموذجا آخر في ص ٢٦ .

(٣) انظر : العناصر النفسية في سياسة العرب ٢٢ ، ومثالا آخر في دراسة الأغاني ٧٥ .

(٤) انظر مثلا : دراسة الأغاني ٢٤٦ و ٢٤٨ . وانظر كذلك : مقال ( تمازج الثقافات ) ص ١٠٥ ، مجلة المجمع ، ج ٢ ، مج ١٠ .

**١٣ - إشراك القارئ في إصدار الأحكام :**

يسعى جبري كثيرا إلى إشراك القارئ في إصدار الأحكام ، حتى لاتكون التبعة عليه وحده ، كقوله : « أفيرى القارئ الكريم كيف يدرك معاوية أسرار النفوس ؟! »[١]، وقوله : « وأنا أترك لكم الحكم على الفرق بين الوصفين »[٢] ، ومثله قوله : « إني أترك الجواب عن ذلك للقارئ نفسه »[٣] .

إن هذا الأسلوب آسر للقارئ ، لأنه يشعره بتواضع الكاتب ، واحترامه لرأي قرّائه ، وعدم محاولته فرض الرأي دفعة واحدة ، وكأنه - بذلك - يحاول أن يستلهم القارئ الرأي[٤].

وقد يعنّ لجبري رأي في مسألة حرجة ، فيقف دون إصدار الحكم مطلقا ، خشية التبعة[٥]، وربما عرض رأيه مشوبا بشيء من الحذر ، كقوله - عند الحديث عن جعل عمر الخلافةَ شورى - : « وإذا لجأت إلى الحرية في الكلام ، قلتُ : خاف التبعة ففر منها »[٦].

ومما يتصل بهذه السمة ، أنه يحاكم الآراء التي يعرضها ، ولايقبلها على علاتها[٧]، ويردّ كثيرا منها[٨]، غير أن هذه الصرامة في قبول الآراء ، يقابلها تراخٍ شديدٍ في تمحيص بعض الروايات ، فتجده يثبت أحداثا لايقبلها العقل ولا التاريخ ، وقد يُجري حكمه على عصر كامل من خلال خبر واحد ، وأوضح نموذج على ذلك حديثه عن « المرأة في كتاب الأغاني »[٩].

تلك أهم السمات الأسلوبية ، التي اتسم بها نثر شفيق جبري ، وتبقى الإشارة إلى بعض اللوازم الأسلوبية عنده ، وبعض المآخذ عليه .

---

(١) العناصر النفسية في سياسة العرب ٣٢ .
(٢) أين تعلم المتنبي ٣٤٠ ، مجلة المجمع ، ج٦ ، مج ١٠ .
(٣) أحمد فارس الشدياق ١٧٥ .
(٤) انظر مقال : ( شفيق جبري وآراؤه النقدية ) ص ٩٥ .
(٥) انظر : العناصر النفسية في سياسة العرب ٤٦ .
(٦) المصدر السابق ٢١ .
(٧) انظر مثلا : دراسة الأغاني ٢٢٦ .
(٨) انظر مثلا : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢١٥ ، ودراسة الأغاني ٣٠١ .
(٩) انظر : دراسة الأغاني ١٤٧ ، وانظر أيضا : ص ١٧٢ .

**لوازم أسلوبيـــة :**

يرى جبري أن لكل أديب مفردات ومصطلحات وتراكيب ، لايحيد عنها ، وربما استعملها وكرّرها دون أن يشعر[١] ، وهذا القول منطبق عليه كل الانطباق ، ولعله يعني نفسه من طرف خفي ، حتى لايؤاخذه أحد على مافي نثره من جمل وألفاظ تتردد كثيرا .

وأول لوازمه الأسلوبية ، أنه يكثر من أسلوب الاستفهام ، إما لغرض تعليمي : كأن يقدّمه بين يدي الفكرة التي يزمع مناقشتها ، مثل : « أين طلب الجاحظ العلم في صغره ؟ ! »[٢]، أو « أفلا يزال منكم على ذُكر ماقلته لكم ؟ »[٣] .

وقد يكون الاستفهام تقريريا أو إنكاريا ، أو لغرض آخر ، وتأمل هذه الطائفة من الاستفهامات ، تجدْ مصداق ذلك :

« فأي كلام أقوى من هذا الكلام ؟ »[٤]- « أفلا نجد في هذا الكلام أصول الأدب الإنساني ؟ »[٥]- « أي معنى لم يقم في صدر الجاحظ ، وأي فكر لم يزدحم على ذهنه ؟ »[٦]- « أي تشبيه أنطق من التشبيه بالآلة والصنم ؟ »[٧].

والتعجب كذلك واحد من لوازمه الأسلوبية ، مثل قوله : « ما أجد عقله ! وأسلم تفكيره ! »[٨]، وقوله : « فما أعذب قوله ... ! ما أعذب هذه الياءات ... »[٩].

ومن لوازمه أيضا، استخدام لام الأمر المقترنة بالفعل المضارع ، مثل : «فلنقرأ هذه الخطبة »[١٠]، « لننظر كيف كان كتابنا»[١١]، « فلنشهد انتفاض تلك العصور»[١٢]،

---

(١) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢١٣ .
(٢) المصدر السابق ٣٦ ، وانظر كذلك ص : ٦٠ .
(٣) مقالة ( أطوار النقد ) ص ١٦٦ ، مجلة المجمع ، ج ٣ ، مج ١٠ .
(٤) أحمد فارس الشدياق ٧٩ .
(٥) المصدر السابق ٩٩ .
(٦) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٨ .
(٧) أحمد فارس الشدياق ٩٨ .
(٨) المصدر السابق ١٠١ .
(٩) بين البحر والصحراء ٨١ .
(١٠) العناصر النفسية في سياسة العرب ٤٨ .
(١١) بين البحر والصحراء ٧٢ .
(١٢) دراسة الأغاني ١٠٦ .

« فلنبحث عن عاداتهم ... ولنشهد مجلسا من تلك المجالس »[١] ، وهذا الأسلوب كثير جدا ، وليس المقام مقام حصر .

كما أنه يُكثر من إيراد المفاعيل المطلقة [٢]، وأدوات الشرط[٣] ، ويستخدم ضمير الجمع كثيرا ، عند الحديث عن نفسه [٤].

ومن الجمل والألفاظ التي تعد لوازم في أسلوبه :

ظلمات بعضها فوق بعض - اختمار الفكرة ، والرأي المختمر ، واختمرت اللغة - امتد بي نفس الكلام - ذهَبتْ بين سمع الأرض وبصرها - سجيس الليالي[٥] - نلمس عظمته بأيدينا - تراخى أمد الكلام - طرْز - مهابّ - مندوحة ، ومنتدح ، ونُدحة - اضرب بعينك .

ومن لوازم أسلوبه ، أن يختم مقالاته وبعض مباحث كتبه ، بقوله : والخلاصة كذا وكذا أو : وخلاصة هذا الحديث كذا .

وعندي أن تكراره لبعض تلك اللوازم ، تجاوز الحد ، وفاض عن الحد المقبول ، حتى وقع في نمطية مزعجة .

لقد كان أسلوب جبري رفيعا رصينا ، ولكن النقص مستولٍ على جملة البشر ، فلذلك تجد لديه بعض الهنات والضعف في الصياغة ، ولكنها لاتشكّل ظاهرة ، فمن ذلك ، قوله : « وإذا دخل هذا السمك فاه الحوت أمن الغوائل »[٦]، ولستُ أدري كيف ساغ له - وهو الأديب الطُّلَعة - أن ينطق بهذا الغلط !

وفي موضع آخر ، تجده يعيد كلمة « موسيقا » ثماني مرات في أربعة أسطر[٧]، مما أفسد جمال التعبير .

---

(١) المصدر السابق ١٤١ .

(٢) انظر مثلا : مقال ( تاريخ الأدب ) ١٥٥ ، مجلة المجمع ، ج٣ ، مج ١٠ ، وانظر كذلك : العناصر النفسية ، عدة صفحات مثل : ٢٠ و ٤٠ .

(٣) انظر مثلا : العناصر النفسية ٣٨ .

(٤) انظر مثلا : أحمد فارس الشدياق ٣٠ و ٣١ .

(٥) يقال : لا آتيك سجيس الليالي أي آخرها . ( اللسان ) .

(٦) أنا والنثر ٤٤ .

(٧) انظر : مقال ( سحر العبقرية ) ٢٢٥ ، مجلة المجمع ، ج٤ ، مج ١٠ .

ومن الجمل الضعيفة أسلوبيا عنده هذه الطائفة :

- « فإذا دلت هذه الحكاية على شيء ، فإنها تدل على عقل معاوية »[١].
- « فلا فائدة لنا في زياراتهم التي يزورونها لنا »[٢].
- « فلما أشبعت هذه الطبيعة مجامع حواسه ، فقد أروت طائفة من فنه »[٣].
- « فما كان يجري في ذلك العصر ، لقد تولى في كتاب الساق على الساق تدوين سيرته »[٤].

وبعد ، فقد كان شفيق جبري ، متميّزا بأسلوبه ، ضاربا في جمال لغته وحلاوة ألفاظه بسهم وافر ، وماأصدقه حين قال متحدثا عن هذا الأسلوب : « إنه أسلوب سهل بسيط واضح ، لايخرج عن روح اللغة وعبقريتها[٥] » .

---

(١) أنا والشعر ٨٢ .
(٢) من مقال ( فن العمل ) في مجلة الثقافة المصرية ص ١٠ .
(٣) بين البحر والصحراء ١٧ .
(٤) أحمد فارس الشدياق ٥ .
(٥) أنا والنثر ٢٥ .